



هَذَا إِلَهِي



سَيِّدِ قُطْبٍ

دار الشروق

هَذَا النَّبِيُّ

الطبعة الرابعة عشرة

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الخامسة عشرة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد العاتم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -

رابعة العدوية - مدينة نصر

ص. ب. ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

سَيِّدُ قَطَبَاتِ

فَضْلُ الزَّالِزِينِ

دار الشروق

المحتويات

٥	منهج للبشر
١٧	منهج متفرد
٢٩	منهج ميسر
٤٢	منهج مؤثر
٥١	رصيد الفطرة
٦٦	رصيد التجربة
٧٩	خطوط مستقرة
٩٦	وبعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهج للبشر

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين ، وطريقة عمله في حياة البشر.. حقيقة أولية بسيطة .. ولكنها مع بساطتها ، كثيرا ما تنسى ، أو لا تدرك ابتداء . فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين : حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي . حاضره ومستقبله كذلك !

إن البعض ينتظر من هذا الدين – مادام مَرَّلاً من عند الله – أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ! ودون أى اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادى ، في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفى أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادى للحياة الإنسانية ، يتفاعلان معه ، فيتأثران به – فى فترات – تأثرا واضحا ، على حين أنهما فى فترات أخرى يؤثران تأثيرا مضادا لاتجاهه ، فتتعدد بالناس شهواتهم وأطماعهم ، وضعفهم ونقصهم ، دون تلبية هتاف هذا الدين ، أو الاتجاه معه فى طريقه ..

حين يرون هذا فإنهم يصابون بنجبة أمل لم يكونوا يتوقعونها – مادام

هذا الدين متراً من عند الله - أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجديّة المنهج الديني للحياة وواقعيته . أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً !

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي : هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية . يتم تحقيقه في حياة البشر بجهود البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية ؛ وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة ، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حيناً يتسلم مقاليدهم . ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية ، وبقدر ما يدلونه من هذه الطاقة .

ومميزته الأساسية : أنه لا يغفل لحظة ، في أية خطوة وفي أية خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته ، وواقع حياته المادي أيضاً . وأنه - في الوقت ذاته - يبلغ به - كما تحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة - إلى ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق . وفي يسر وراحة وطمأنينة واعتدال .

ولكن الخطأ كله - كما تقدم - ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها . ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه ... تلك الخوارق التي تبدل فطرة الإنسان ، ولا تبالي طاقاته المحدودة ، ولا تحفل واقعها المادي البني !

أليس هو من عند الله؟ أليس الله قادراً على كل شيء؟ فلماذا إذن يعمل هذا الدين - فقط - في حدود الطاقة البشرية المحدودة؟ وتأثير نتائج عمله بالضعف البشرى؟ بل لماذا يحتاج أصلاً إلى الجهد البشرى؟ ثم.. لماذا لا يتنصر دائماً، ولا يتنصر أصحابه دائماً؟ لماذا تغلب ثقله الضعف والشهوات والواقع المادى على رفرقته وشفافيته وانطلاقه أحياناً؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه - وهم أهل الحق - أحياناً!! وكلها - كما ترى - أسئلة وشبهات، تتبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته.. أو من نسيانها!

إن الله قادر - طبعاً - على تبديل فطرة الإنسان، عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه. ولكنه - سبحانه - شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها. وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا».. وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائماً، ولا تمحى ولا تعطل: «ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها».. وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهى للحياة البشرية عن طريق الجهد البشرى، وفي حدود الطاقة البشرية: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».. «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».. وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد، وما ينفق من الطاقة، وما يصبر على الابتلاء في تحقيق هذا المنهج الإلهى القويم، وفي دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله: «أحسب الناس أن

يتذكروا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .:

وليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان . ليس لأحد من خلقه أن يسأله - سبحانه - مادام أن أحدا من خلقه ليس إلها ، وليس لديه العلم - ولا إمكان العلم - بالنظام الكلى لهذا الكون ، ومقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود .

ولماذا ؟ - في هذا المقام - سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله ملحد جاد .. المؤمن لا يسأله ، لأنه أكثر أدبا مع الله - الذى يعرفه بذاته وصفاته وخصائصه - وأكثر معرفة بطبيعة إدراكه البشرى وحدوده ، وأنه لم يبيأ للعمل في هذا المجال .. والملحد الجاد لا يسأله ، لأنه لا يعترف بالله ابتداء ، فإن هو اعترف بالوحيته عرف معها أن هذا شأنه - سبحانه - ومقتضى ألوهيته ، وأنه : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . لأنه وحده المهيمن العلم بما يفعل .

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لا هو مؤمن جاد ، ولا هو ملحد جاد . ومن ثم لا يجوز الاحتفال به ، ولا أخذه مأخذ الجد .. وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية وخصائصها . فالسبيل لتعليم هذا الجاهل ليس هو الإجابة المباشرة . إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية وخصائصها .. حتى يعرفها ويسلم بها فهو مؤمن . أو يحجدها وينكرها فهو ملحد .. وبهذا ينتهى الجدل . إلا أن يكون مرء ! والمسلم منهى عن المضى فى الجدل حتى يكون مرء !

والخلاصة التي ننهي إليها من هذا الاستطراد في هذه الفقرة : هي أنه ليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء أن يخلق «الإنسان» بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن يبق فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعطل ؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياته البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشرى ، وفي حدود الطاقة البشرية ، والواقع المادى لحياته ؟ ولم يشأ أن يجعله يتم بوسيلة خارقة ، وبأسباب مبهمة غامضة ! ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها ؛ ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية . ويفسر أحداث التاريخ البشرى على ضوءها . فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية ؛ ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحية أخرى . ويعيش مع حكمة الله وقدره ، فينطبع بها الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة .

هذا المنهج الإلهي ، الذي يمثل «الإسلام» في صورته النهائية ، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يتحقق في الأرض ، وفي دنيا الناس ، بمجرد تنزله من عند الله . لا يتحقق بكلمة : «كن» الإلهية ، مباشرة لحظة تنزله . ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه . ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمتضى ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب . إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر . تؤمن به إيماناً كاملاً ، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك ؛ وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك .. تجاهد الضعف البشرى

والهوى البشرى فى داخل النفوس . وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف فى وجه الهدى .. وتبلغ - بعد ذلك كله - من تحقيق هذا المنهج ، إلى الحد الذى تطيقه فطرة البشر ، والذى يهبه لهم واقعهم المادى . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التى هم فيها فعلا ؛ ولا تغفل واقعهم ، ومقتضياته فى سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهى .. ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة . وتنهزم فى المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة .. بقدر ما تبذل من الجهد . ويقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان وللمقتضيات الأحوال . وقبل كل شئ .. بمقدار ما تمثل هى ذاتها من حقيقة هذا المنهج ؛ ومن ترجمته ترجمة عملية فى واقعها وسلوكها الذاتى .

هذه هى طبيعة هذا الدين وطريقته . وهذه هى خطته الحركية ووسيلته .. وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهو يقول لها : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» . «والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا» .

وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة فى غزوة أحد حينما قصرت فى تمثيل حقيقة هذا الدين فى ذوات أنفسها فى بعض مواقف الغزوة . وحينما قصرت فى اتخاذ الوسائل المناسبة فى بعض مواقفها . وحينما غفلت عن هذه الحقيقة الأولية أو نسيها ؛ وفهمت أن من مقتضى

كونها مسلمة أن تنتصر حتماً ! فقال لها الله سبحانه : «أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا؟ قل : هو من عند أنفسكم» . وقال لها . «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم» .

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة ، لا بالكلام ولا بالعتاب ، ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالألآم . ودفعت ثمنها غاليا : هزيمة بعد نصر . وخسارة بعد غم . وجراحا لم تكد تدع أحدا معافا . وشهداء كراما فيهم سيد الشهداء حمزة - رضى الله عنه - وأعلى من ذلك كله وأشد وقعا على الجماعة المسلمة كلها : جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشج وجهه الكريم ، وكسر رباعيته في فمه ، ووقوعه لجنبه في الحفر التي حفرها أبو عمرو الفاسق حليف قريش مكيدة للمسلمين ؛ وجهد المشركين له - صلى الله عليه وسلم - وهم يطاردونه ، وهو مفرد في نفر من أصحابه إستشهدوا واحدا بعد واحد وهم يذودون عنه ؛ ويترس أحدهم - أبو دجانة - بظهره عليه يقيه نبل المشركين ، والنبل يقع في ظهره فلا يتحرك.. حتى ثاب إليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم ، وهم يتلقون هذا الدرس الشاق المرير !

على أنه من الملاحظ الواضح أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشرى ، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية ، يصلح النفوس البشرية ، ويصلح الحياة البشرية .. نقول هذا لا لنعلل به مشيئة الله - سبحانه -

في جعل الأمر على ما جعله . ولكن لنسجل - فقط - ملاحظة واقعية
لآثار هذه المشيئة في حياة العباد .

ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة
الناس في أمر هذا الإيمان . مجاهدتهم بالقلب بكرهه باطلهم وجاهليتهم
والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام . ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ
والبيان . ورفض باطلهم الزائف ، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام .
ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة
الباغية والبطش العشوم ! .. وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء
والأذى ، والصبر على الابتلاء والأذى ، والصبر على الهزيمة والصبر على
النصر أيضا - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة . ثم ثبت ولا
يرتاب ؛ ويستقيم ولا يتلفت ؛ ويمضي في طريق الإيمان راشدا صاعدا .

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في
أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس ؛ وتفتح
له في الإيمان آفاق لم تكن لتفتح له أبدا وهو قاعد آمن ساكن ، وتبين
له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتبين له أبدا بغير هذه
الوسيلة . ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصورات ، وبعاداته وطباعه وانفعالاته
واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبدا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لفسدت الأرض » . وأول ما تفسد : فساد النفوس بالركود الذي
تأسن معه الروح ؛ وتسترخى معه الهمة ، ويتلفها الرخاء والطراوة . ثم
تأسن الحياة كلها بالركود . أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها . كما يقع

للألم حين تبثلى بالرخاء !

فهذه كذلك من الفطرة التى فطر الله الناس عليها . لقد جعل صلاح هذه الفطرة فى المجاهدة لإقرار منبج الله للحياة البشرية ، عن طريق الجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية كذلك .

ثم إن هذه المجاهدة وما يصاحبها من الابتلاء ، هى الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف - بعد تمحيص النفوس - ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين ؛ ومن ضعاف النفوس والقلوب ، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين ..

وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهى تتعرض للامتحان ؛ وتعرض للابتلاء ؛ وتتكشف فيها خفايا النفوس ؛ كما تتميز فيها الصفوف . تحت مطارق الابتلاء ومشقة التجربة ، ومرارة الآلام .

وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة ، وهو يعقب على أحداث الغزوة . فيقول لها ، رداً على سؤال المسلمين : « أفى هذا ؟ » « قل : هو من عند أنفسكم » .. ثم يعقب على هذا بقوله : « وما أصابكم يوم التقي الجمعان فبإذن الله . وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا » .. « وما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .. « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، ولنمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ... كل ذلك ليستقر فى حشهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم فى تمثيل

حقيقة الإيمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاتهم في الغزوة .. فإنه كذلك كان لخيرهم في النهاية بفضل الله عليهم ، وتجاوزه عن تقصيرهم ؛ واتخاذ نتائجه مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم ، وتميز صفوفهم .. وكله خير لأنفسهم ولحياتهم في نهاية المطاف ..

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته ، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان .. تكملة ضرورية لها لابد من بيانها كذلك :

إن كون هذا المنهج الإلهي متروك لتحقيقه للمجهود البشري ، في حدود الطاقة البشرية ، وفي حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية في شتى المراحل ، وشتى البيئات .. لا يعنى استقلال الإنسان نهائيا بهذا الأمر ؛ وانقطاعه عن قدر الله وتدبيره ، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره .. فتصور الأمر على هذا النحو يخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلامى .

ولقد بينا فيما سلف أن الله - سبحانه - يساعد من يجاهد للهدى :
«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .. وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم ، وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

وهذان النصان يوضحان لنا العلاقة بين الجهد البشرى الذى يبذله الناس ، وعون الله ومدده الذى يسعفهم به ؛ فيبلغون به ما يجاهدون فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح .

فإرادة الله هى الفاعلة فى النهاية ؛ وبدونها لا يبلغ «الإنسان» بذاته

شيئاً ، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها ، ويستمد عونها ويجاهد في الله ليلبغ رضاه .

وقدر الله - مع ذلك كله - هو الذى يحيط بالناس والأحداث ؛ وهو الذى يَمّ وفقه ما يَمّ من ابتلاء ؛ ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء .

وهذه هى الحقيقة التى شاء الله - سبحانه - أن يعلمها للجماعة المسلمة . وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب الهزيمة - من عملها - ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء كله ، ومن وراء النصر والهزيمة : وعن تدبيره كذلك « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » . وليرفهم سنته الشاملة . ومردها في النهاية إلى مشيئته الطليقة وقدره النافذ من وراء الأسباب والوقائع : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداؤها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . ولينحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

وإذن فهو - في النهاية - تدبير الله ومشيئته وقدره ، ليتّم ما يريد من وراء الأسباب والأحداث ، وهو الأمر الذى لا يسأل عنه سبحانه : لأنه شأنه الإلهى ، الذى لا يسأل عنه .. وهذه هى حقيقة الإيمان الكبرى التى لا يتم في النفس إلا باستقرارها فيها ، واطمئنانها إليها .. وهى التكملة التى لا بد منها لما قرره في هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين

وطريقته .. بلا تعارض بين طرفي هذه الحقيقة في حس المسلم ، الذي
يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين ، كما أنزلها الله . ولا يعارضها بتصورات
ومقررات ليست مستقاة من كتاب الله ..

* * *

منهج مُتفَرِّد

والآن يقول قائل : إذا كان الإسلام ، وهو منهج الله للحياة البشرية ، لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس ، إلا بالجهد البشرى ، وفي حدود الطاقة البشرية ، وفي حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية في البيئات المختلفة .. فما ميزته إذن على المناهج البشرية ، التى يضعها البشر لأنفسهم ، ويبلغون منها ما يبلغه جهدهم ، فى حدود طاقتهم وواقعهم ؟ ولماذا يجب أن نحاول تحقيق ذلك المنهج ، وهو يحتاج إلى الجهد البشرى ككل منهج ؟ فلا يتحقق منه شئ بمعجزة خارقة ، ولا بقهر إلهى ملزم ؟ وهو يتحقق فى حياة الناس ، فى حدود فطرتهم البشرية ، وطاقتهم العادية ، وأحوالهم الواقعية ؟!

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام . فركن الإسلام الأول : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. وشهادة أن لا إله إلا الله ، معناها القريب : إفراد الله - سبحانه - بالألوهية ، وعدم إشراك أحد من خلقه معه فى خاصية واحدة من خصائصها .. وأولى خصائص الألوهية : حق الحاكمية المطلقة ، الذى ينشأ عنه حق التشريع للعباد ؛ وحق وضع المناهج لحياتهم ؛

وحتى وضع القيم التي تقوم عليها هذه الحياة . فشهادة «أن لا إله إلا الله» لا تقوم ولا تتحقق إلا بالاعتراف بأن الله وحده حق وضع المنهج الذي تجرى عليه الحياة البشرية ؛ وإلا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج في حياة البشر ، دون سواه .. وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج حياة جماعة من الناس ، فقد ادعى حق الألوهية عليهم ، بادعائه أكبر خصائص الألوهية . وكل من أقره منهم على هذا الادعاء فقد اتخذها إلهاً من دون الله ، بالاعتراف له بأكبر خصائص الألوهية .. وشهادة أن محمداً رسول الله ، معناها القريب : التصديق بأن هذا المنهج الذي بلغه لنا من الله ، هو حقاً منهج الله للحياة البشرية ، وهو وحده المنهج الذي نحن ملزمون بتحقيقه في حياتنا وفي حياة البشر جميعاً .

ومن ثم فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ؛ لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام التي ندعيها . وهي لا تتحقق إلا بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وهذه الشهادة لا تقوم إلا بإفواء الله بالألوهية . إفراده بحق وضع منهج الحياة . ومحاولة تحقيق ذلك المنهج الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله .

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأسباب تتعلق بالمنهج ذاته . فهو - وحده - المنهج الذي يحقق كرامة «الإنسان» ويمنحه الحرية الحقيقية ، ويطلقه من العبودية .. هو - وحده - الذي يحقق له التحرر الكامل الشامل المطلق - في حدود إنسانيته وعبوديته لله - التحرر من

العبودية للناس بالعبودية لله رب الناس .. وما من منهج آخر فى الأرض يحقق هذه الخاصية إلا الإسلام .. ذلك أنه بربانيته ، التى تفرد الله - سبحانه - بالألوهية ، ومن ثم تفرد - سبحانه - بحق الحاكمية التى تشريع للناس منهج حياتهم .. يجعل للناس إلها واحدا ، وسيدا واحدا . ويمنع أن يكون بعضهم آلهة لبعض ؛ لهم حق الحاكمية بعضهم على بعض ؛ ولهم حق السيادة بعضهم على بعض ، فى مقابل العبودية التى يتسم بها من يقولون هؤلاء الآلهة بخصائص الألوهية !

وفى هذه الخاصية يتفرد المنهج الإلهى . لا باللفظ والدعوى ، ولكن بالحقيقة والواقع .. ومن ثم كانت دعوة الرسل جميعا - عليهم الصلاة والسلام - هى أفراد الله بالألوهية ؛ وإنكار كل خاصية من خصائصها على غير الله - سبحانه - من عبيده ، الذين يتألهون ، فيدعون حق وضع المناهج لحياة عباد الله ؛ ويقرهم على هذا الادعاء من لا يؤمنون بوحداية الله !

ولقد قال الله عن اليهود والنصارى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » .. وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان ؛ إنما كانوا - فقط - يقولون لهم بحق التشريع لهم من دون الله ، وبحق وضع المناهج لحياتهم بالتشريع . فقال الله عنهم : إنهم اتخذوهم أربابا . وإنهم خالفوا عن أمر الله لهم بالتوحيد . وإنهم مشركون ..

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق ، عن عدى بن

حاتم - رضى الله عنه - أنه لما بلغت دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فر إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أخته وأعطاه . فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيئ . أبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم . فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي عتق عدى صليب من فضة - وهو يقرأ هذه الآية : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ..» قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : «بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم !»

وقال السدي : استنصحو الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : «وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً» ، أى الذى إذا حرم الشئ فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ...

والإسلام وحده هو الذى يفرد الله - سبحانه - بالعبادة ، حين يفرد بالحاكمة وحق وضع المنهج لحياة الناس . ومن ثم فهو - وحده - الذى يطلق الناس من العبودية لغير الله ... ولهذا فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق هذا المنهج دون سواه !

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، لأنه - بريانيته - هو المنهج

الوحيد المبرأ من نتائج الهوى الإنسانى ، والضعف الإنسانى ، والرغبة الإنسانية فى النفع الذاتى ؛ وفى تحقيق ذلك النفع عن طريق التشريع . لشخص المشرع . أو لأسرته . أو لطبقته . أو لشعبه . أو لجنسه .. فواضع ذلك المنهج هو الله . وهو - سبحانه - رب البشر أجمعين . فهو لا يشرع ليحايى نفسه ! ولا ليحايى طبقة من البشر على طبقة ! ولا ليحايى شعبا على شعب ! ولا ليحايى جنسا على جنس !

والتشريع البشرى ، الذى يصنعه فرد حاكم ، أو أسرة حاكمة ، أو طبقة حاكمة ، أو أمة حاكمة ، أو جنس حاكم ... يستحيل - بحسب فطرة الإنسان - أن يتجرد من الهوى ، ومن مراعاة مصلحة واضع التشريع .

فأما حين يكون منهج الله هو الذى يحكم حياة البشر ، فنتفى هذه الصفة ويتحقق العدل الحقيقى الشامل الكامل ، الذى لا يملك منهج آخر من مناهج البشر أن يحققه فى صورته هذه . لأنه ليس بين هذه المناهج كلها ما يمكن أن يتجرد من عوامل الهوى الإنسانى ، والضعف الإنسانى والحرص على المصلحة الذاتية فى صورة من الصور .

وقد يخطر لقلل أن يقول حين يسمع التوجيهات الربانية الرفيعة فى إقرار هذا العدل الشامل الكامل ، الذى لا يتأثر بالهوى ، ولا يتأثر بالعصية والقربة من مثل قوله تعالى للجماعة المسلمة : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون » ..

قد ينظر لقائل أن يقول : وما هي الضمانات التي تجعل الجماعة المسلمة تحقق هذا العدل الذي يدعوها الله إليه ، وأمرها به ؟

والضمانة الحقيقية للمنهج الإسلامى كله كامنة فى ضمير المسلم ؛ منبعثة من إيمانه . ففى وجد الإيمان بهذا الدين وجدت معه أقوى ضماناته . والمسلمون يتعلمون من دينهم أن مقومات وجودهم وانتصارهم والتمكين لهم فى الأرض ، تقوم كلها على الوفاء بهذه التوجيهات ؛ وإلا تعرض وجودهم للزوال ، وانقلب انتصارهم هزيمة ، وذهبت ريحهم وذلوا . وهم يسمعون الله - سبحانه - يقول لهم : « ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » .. ويوقنون أن الله - سبحانه - لا يباهيهم حين يحيدون عن الطريق .

والجماعة المسلمة ضمانة حقيقية لتحقيق هذه التوجيهات . فهى تقوم على هذه العقيدة . وتأخذ نفسها بالتزام ما ألزمها الله . وترى فى كل إهمال أو تفريط نذيراً بسوء يلحقها كلها ، ولا يصيب الذين ظلموا منها خاصة ..

ومن ثم نحن ملزمون بتحقيق ذلك المنهج ، لتحقيق ذلك العدل الشامل الكامل ، الذى لا يتحقق إلا فى ظل هذا المنهج المتفرد .

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، لأنه - وحده - المنهج المبرأ من نتائج الجهل الإنسانى والقصور الإنسانى - براءته من نتائج الضعف

البشرى - فواضعه هو خالق هذا الكائن الإنسانى ، العلم بما يصلحه ويصلح له . وهو المطلع على خفايا تكوينه وتركيبه ، وخفايا الملائسات الأرضية والكونية كلها فى مدى الحياة البشرية كذلك .. فإذا وضع له منهجا كان ملحوظا فى هذا المنهج كل هذه العوامل التى يستحيل على البشر أفرادا ومجتمعين فى جيل من الأجيال - وفى جميع الأجيال كذلك - أن يطلعوا عليها . لأن بعضها فى حاجة إلى استحضار جميع التجارب والظواهر للحياة البشرية فى جميع أجيالها السابقة والحاضرة ، والمستقبلية التى لم توجد بعد - وهذا مستحيل - وبعضها فى حاجة إلى الاطلاع على كل خفايا الكون المحيطة بالإنسان - وهذا مستحيل كذلك - وذلك إلى قصور الإدراك البشرى ذاته عن الحكم الصحيح المطلق حتى على ما يمكن أن تستحضر فيه التجارب والظواهر ! لأنه محكوم بطبيعته الجزئية - غير المطلقة - ومحكوم بمؤثرات الهوى والضعف الأخرى .. فليس هو إذن بالحكم فى منهج يوضع « للكائن الإنسانى » !

ومن ثم يقول الله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض .. » ويقول : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

والناس كلهم لا يعلمون .. لا يعلمون ذلك العلم المطلق ، الذى يحتاج إليه وضع منهج للحياة البشرية .. ومن ثم لا يكون لهم إلا الهوى وإلا الجهل حين يتصدون لما ليس من شأنهم ، ولما ليس من اختصاصهم .. فوق ادعائهم لخاصية من خصائص الألوهية .. وهو إنهم عظيم . وشر عظيم !

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه - وحده - المنهج الذى يقوم نظام الحياة البشرية فيه على أساس من التفسير الشامل للوجود . ولكان الإنسان فى هذا الوجود . ولغاية الوجود الإنسانى - كما هى فى الحقيقة - لا كما يرسمها الجهل والضعف والهوى البشرى ، فى أى تصور آخر غير ربانى .

وهذا هو الأساس السليم القويم الوحيد لقيام نظام للحياة البشرية على جذوره الطبيعية . فكل نظام لحياة البشر لا يقوم على أساس من هذا التفسير الشامل لا يقوم على جذوره الطبيعية ، وهو نظام مصطنع لا يمكن أن يعيش طويلا . وهو مصدر شقاء للبشر طوال مدة قيامه فيهم ، حتى تحطمه فطرتهم وترجع إلى الأصل السليم القويم .

وهذا التفسير الذى يتضمنه ذلك المنهج الإلهى هو - وحده - التفسير الصحيح . لأنه من صنع خالق الوجود ، وخالق الإنسان ، العليم بحقيقة الوجود وبحقيقة الإنسان .. وكل تفسير آخر للوجود ، ول مقام الإنسان فيه ، ولغاية الوجود الإنسانى من صنع الإنسان نفسه ، هو تفسير قاصر ، لأن الوجود أكبر من الإنسان . فهناك استحالة فى أن يصنع له الإنسان تفسيراً شاملاً . ولأن تحديد غاية الوجود الإنسانى تحتاج إلى علم خالق هذا الإنسان وما أراه من خلقه . كما تحتاج إلى تجرد من الهوى فى تحديد هذه الغاية ! الأمر الذى لا يتيسر للإنسان أبداً .

والذى يراجع سجل الفلسفة التى حاولت تفسير الوجود ، وتفسير مكان الإنسان فيه ، وتفسير غاية الوجود الإنسانى ، يقع على ركام عجيب . فيه من المضحكات الساذجة بقدر ما فيه من السخف

والافتعال . حتى ليعجب الإنسان : كيف تصدر هذه التصورات عن «فيلسوف» !! لولا أن يتذكر أن هذا الفيلسوف إنسان ، لا يملك إلا أداة العقل البشرى . وأن هذا ليس مجال العقل البشرى . وأن هؤلاء الناس «الفلاسفة» ! هم الذين زجوا بأنفسهم في مجال لا منارة لهم فيه ، إلا تلك الذبالة الموهوبة لهم من الله لشأن آخر غير هذا الشأن . ولجمال آخر غير هذا المجال . شأن تملك فيه أن تجدى ، ومجال تملك فيه أن تنير.. ذلك هو شأن الحياة الواقعية ، وذلك هو مجال الخلافة في الأرض . وفق المنهج الإلهي . مع التطلع إلى فضل الله وعونه ، فيما يمد به من تفسير شامل للوجود ، ولغاية الوجود الإنساني .. وقوله الفصل وهو الحق .. وقد تضمن منهجه ذلك التفسير بالقدر الذى يقرم عليه التصور الإنسانى الصحيح . وبالقدر الذى يقوم عليه كذلك نظام حياته على جذوره الطبيعية .

فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، ليقوم نظام الحياة البشرية على جذوره الطبيعية . وليس هنالك منهج آخر ، تتوافر فيه هذه الخاصية التى لا بد منها .

ونحن أخيرا ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه - وحده - المنهج الذى يتناسق مع نظام الكون كله . فلا ينفرد الإنسان بمنهج لا يتناسق مع ذلك النظام . على حين أنه مضطر أن يعيش في إطار هذا الكون ، وأن يتعامل بمجملته مع النظام الكونى ..

والتناسق بين منهج حياة الإنسان ومنهج حياة الكون هو وحده الذى يكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة ؛ بدلا من التصادم معها . وهو حين يصطدم معها يتمزق وينسحق ، ولا يؤدي وظيفة الخلافة فى الأرض ، كما أرادها الله له . وحين يتناسق مع نواميس الكون ويتوافق ، يملك معرفة أسرارها ، وتسخيرها ، والانتفاع بها فى حياته . لا ليحترق بنار الكون ولكن لطبخ ويستدفئ ويستضىء !!!

والفطرة البشرية فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون .. فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس ، فإنه لا يصطدم مع الكون الهائل فحسب ؛ بل يصطدم أيضا بفطرته التى بين جنبيه ، فيشتق ويتمزق ويختار ويقلق ؛ ويحيا كما تحيا البشرية اليوم فى عذاب نكد ؛ على الرغم من جميع الانتصارات العلمية ، وجميع التيسيرات الحضارية المادية .

إن هذه البشرية تعاني من الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب ، وتهرب من واقعها النفسى بالأفيون والحشيش والمسكرات . وبالسعادة المجنونة ، والمغامرات الحمقاء ؛ و« بالتقاليع » السخيفة ... وذلك على الرغم من الرخاء المادى والإنتاج الوفير والحياة المبسرة ، والفراغ الكثير .. لا بل إن الخواء والقلق والحيرة لتضاعف كلها تضاعف الرخاء المادى والتيسيرات الحضارية ..

إن هذا الخواء المرير يطارد البشرية كالشبح الرعيب . يطاردها فتهرب منه . ولكنها تنتهى كذلك إلى خواء مرير .

وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية المترفة بالتيسيرات الحضارية - وفى مقدمتها أمريكا والسويد - حتى يكون الانطباع الأول فى حسه أن

هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم . هاربون من ذوات أنفسهم .. وسرعان ما ينكشف له الرخاء المادى والمتاع الحسى والإشباع الجنسى إلى حد التمرغ فى الوحل .. سرعان ما ينكشف له هذا كله عن الأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ الجنسى ، والقلق العصبى ، والمرضى والجنون ، والجريمة الشاذة ، وفراغ الحياة من كل تصور إنسانى كريم .

لقد أحرزت البشرية - عن طريق العلم - انتصارات ضخمة فى عالم الصحة والعلاج من الأمراض الجسمية . فكشفت من الأدوية ووسائل التشخيص والعلاج ما يعد انتصارات رائعة . وبخاصة بعد كشف مركبات السلفا والبنسلين والماليسين ..

ولقد حققت فى عالم الصناعة والإنتاج ما يشبه الخوارق ... وما تزال فى طريقها صعودا فى هذا المجال .

ولقد أحرزت انتصارات باهرة فى كشف الفضاء ، والأقمار الصناعية ، ومحطات الهواء . ومراكب الفضاء ... وما تزال فى الطريق .. ولكن ما أثر هذا كله فى حياتها ؟ ما أثره فى حياتها النفسية ! هل وجدت السعادة ؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف .. إنها لم تتقدم كذلك فى تصور أهداف الحياة الإنسانية ، وغاية الوجود الإنسانى . وحين يقاس تصور الرجل « المتحضر » لغاية وجوده الإنسانى ، إلى التصور الإسلامى لهذه الغاية ، تبدو الحضارة الراهنة لعنة تنحط بالشعور الإنسانى إلى الحضيض ، وتصر من اهتماماته وأشواقه وإنسانيته كلها !

إنهم فى أمريكا مثلاً يعبدون آلهة جديدة ؛ يتصورونها غاية الوجود الإنسانى . إله المال . وإله اللذة . وإله الشهرة . وإله الإنتاج ! ومن ثم لا يجدون أنفسهم لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الإنسانى ! وكذلك الحال فى الجاهليات الأخرى . التى تعبد آلهة مشابهة ، لأنها لا تجد إلهها الحقيقى !

من أجل هذا كله نحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج الإلهى للحياة البشرية . لنزد البشرية إلى إلهها الواحد ؛ وإلى غاية وجودها اللائقة بالإنسانية ؛ وإلى الناموس الكونى الذى يشمل الكون كله ويشملها .

وهذه هى الحقيقة التى يقرها القرآن الكريم ؛ وهو يستنكر مسلك الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله ، ومنهجه فى الحياة ، مخالفين بذلك عن كل شىء فى هذا الوجود الكبير .

«أفغير دين الله يرغبون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون» ؟

وصدق الله العظيم ...

منهج ميسر

ثم يقول قائل : ولكن البشرية لم تصبر طويلا على هذا المنهج السامق الفريد . فقد تفلتت منه الجماعة التي حققت في الأرض فترة من الزمان ؛ وقد انجذبت البشرية بعده إلى مناهج أخرى لا ترتفع إلى تلك القمة السامقة ، ولكنها لا تكلف البشرية هذا الجهد الشاق !

وقد يبدو هذا القول صحيحا للوهلة الأولى . فقد حرص كثير من الكتاب على تثبيت هذا المعنى في النفوس ؛ وعلى الإيحاء بأن هذا المنهج غير عملي ولا واقعي ؛ ولا تطبيقه طويلا فطرة البشر ؛ وإنما هو دعوة « مثالية » إلى أفق غير مستطاع ! وكان لهم من وراء تثبيت هذا المعنى غرض ماكر ؛ هو إشاعة اليأس من إمكان استئناف الحياة في ظل هذا المنهج ؛ وتحويل الجهود التي تبذل لرد البشرية إلى هذا المنهج القويم . ووجد هؤلاء الماكرون في الفتنة التي بدأت بقتل عثمان - رضى الله عنه - وما تلاه من الخلاف بين علي - كرم الله وجهه - ومعاوية ، وما أعقب هذا الخلاف من أحداث ... وجدوا في هذه الفتنة مادة خصبة ؛ وفي الروايات الصحيحة والزائفة عنها فرصة سانحة ، لمحاولة تثبيت ذلك المعنى الخبيث . طورا بالتلميح . وطورا بالتصريح . حسبما واتهم الظروف !

وساعدهم في هذا المكر - عن غير قصد وبحسن نية - جماعة من

المخلصين الذين ساءهم أن تعترض هذه الفتنة خط المد الإسلامي الصاعد في تلك الفترة التاريخية العظيمة . وأن يقع بعض الانحراف في تصور سياسة الحكم عما كان عليه في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والشيخين بعده . وأن يقع بعض الانحراف في سلوك بعض الأمراء أيضا .. ومن ثم يحسون بسبب إرهاب مشاعرهم ، أن المد الإسلامي كله قد توقف بعد فترة الخلافة القصيرة ! وينادون بهذه النظرية في حرارة إخلاصهم وشوقهم للقمة السامقة ! وحاستهم للصورة الوضيئة الفريدة ! وهذا كله يحتاج إلى إعادة النظر ؛ وإلى دقة النظر ؛ وإلى تقدير العوامل البشرية . مع تقدير طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة منهجه لقيادة خطى البشرية في الزمن الطويل ؛ وفي مختلف البيئات ، ومختلف الظروف .

» » »

إنه ليس صحيحا - ابتداء - أن هذا المنهج الإلهي ، يكلف النفس البشرية جهدا أشق من أن تطيقه أو أن تصبر طويلا عليه .

إنه منهج سامق فعلا . ولكنه في الوقت ذاته منهج فطري . يعتمد على رصيد الفطرة ، وينفق من هذا الرصيد المذخور . وميزته أنه يعرف طريقه منذ اللحظة الأولى إلى هذا الرصيد !

إنه يعرف طريقه إلى النفس البشرية منذ اللمسة الأولى . يعرف دروبها ومنحنياتها فيتدسس إليها بلطف ؛ ويعرف مداخلها ومخارجها فيسلك إليها على استقامة ، ويعرف قواها ومقدراتها فلا يتجاوزها أبدا ؛ ويعرف

حاجاتها وأشواقها فيليبيا تماما ؛ ويعرف طاقاتها الأصلية البانية فيطلقها للعمل والبناء ...

وعلى كل رفعتة ونظافته وسموه وسموّه .. هو نظام «للإنسان» . لهذا الإنسان الذي يعيش على سطح هذه الأرض . نظام يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان بكل مقوماتها . وخصائص تكوينه وتركيبه بكل مقتضياتها .

وحين تستقيم النفس مع فطرتها ؛ وحين تلبى حاجاتها وأشواقها ، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء ، فإنها تجرى مع الحياة في يسر وطواعية ؛ وتغضى مع خط الفطرة الصاعد ، إلى القمة السامقة ؛ وهي تجدد الأنس والاسترواح والطمأنينة والثقة في خط سيرها الطويل .

وبعض الذين يتشككون ويشككون في إمكان تحقيق هذا المنهج تروعه «أخلاقية» هذا المنهج ؛ وأصالة العنصر الأخلاقي في تكوينه ؛ وتهولهم تكاليف هذه «الأخلاقية» فيه ؛ ويتصورونها قيودا وكوابح دون انطلاق الإنسان إلى ما يشتهي ؛ وإلى ما تدفعه إليه نوازعه الفطرية وأشواقه !

وهذا وهم ناشئ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين ..

إن أخلاقية الإسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة . كلا ! إنها في صميمها قوة بناءة ، وحركة دافعة إلى

النمو المطرد ؛ وانطلاق إلى الحركة وتحقيق الذات في هذه الحركة .. ولكن في أسلوب نظيف ..

إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في هذا المنهج . فالتبطل والسلبية صورة غير أخلاقية ، لأنها تنافي غاية الوجود الإنساني – كما يصورها الإسلام – وهى الخلافة فى الأرض ؛ واستخدام ما سخره الله للإنسان من قواها وطاقتها فى التعمير والبناء .

والجهاد لتحقيق الخير ومكافحة الشر صورة أخلاقية ؛ تنطلق فيها طاقات أساسية فى الكيان الإنسانى ؛ بينما هى فى اعتبار الإسلام طاعة يتمثل فيها العصر الأخلاقى فى صورة رائعة ..

وحتى حين نأخذ الصور الأخلاقية التى تبدو فى ظاهرها قيودا وكوابح ، فإننا نجدها من الجانب الآخر تمثل صورا من الانطلاق والتحرر .. والحركة ..

نأخذ مثلا صورة ضبط النفس عن الاندفاع مع الشهوات الجنسية المحرمة .. إنها فى ظاهرها تبدو كبتا وكبحا .. ولكنها فى حقيقتها تمثل التحرر من العبودية لهذه الشهوات ؛ والانطلاق من عقالها ؛ واستعلاء الإرادة الإنسانية ، بحيث «تختار» مواضع هذه الشهوات ؛ فى حدود النظافة التى يوفرها الإسلام ، وفى دائرة الطيبات التى أحلها الله^(١) .

كذلك نأخذ صورة أخرى من صور الأخلاقية .. صورة الإيثار . إنها

(١) تراجع فصل «مجتمع أخلاق» فى كتاب «نحو مجتمع إسلامى» تحت الطبع . وفصل «التبذير والحرية» فى كتاب «فى النفس والمجتمع» لمحمد قطب .

قد تبدو تكليفا للنفس ؛ وكفأ لها عن التمتع بكل ما تملك ؛ لتؤثر به نفسا أخرى .. ولكنها في صميمها انطلاق من الشح ؛ واستعلاء على الحرص ؛ وسعة في الشعور بالخير العام ، الذي لا ينحصر في إطار الذات .. فهي في حقيقتها انفلات وتحرر وانطلاق .

ولا نملك المضى في عرض الأمثلة الكثيرة على هذا النحو . فحسبنا هذه الإشارة ، لفهم حقيقة « القيود » الأخلاقية في المنهج الإسلامى .

إن الإسلام يعتبر الآثام والردائل قيودا وأغلالا ، تشد النفس الإنسانية وتثقلها وتهبط بها إلى الوحل . ويعد الانطلاق من أوهاق الميول المأبذة تحمرا وانطلاقا ، وكل « أخلاقيته » تقوم على هذا الأساس .

ذلك أنه يعتبر أن الأصل في الفطرة هو الاستعداد للخير ؛ فالإنسان خلق في أحسن تقويم . وإنما يترد أسفل سافلين حين يستسلم لغير منهج الله : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين .. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .. ومن ثم فإن المنهج الذى يلائم الفطرة ، هو الذى يعينها على الانفلات من القيود الطارئة على الفطرة الخيرة ، والتحرر من ريقة الشهوات المقيدة !

والإسلام يحرص على قيادة المجتمع البشرى ، والهيمنة عليه ، لينشئ فيه حالات وأوضاعا تطلق الأفراد من الانحرافات الدخيلة على الفطرة ؛ وتسمح للقوى الخيرة البانية فى الفطرة بالظهور والتحرر والتفوق ؛ وتزيل العوائق التى تحول بين الفطرة والانطلاق إلى الخير الذى فطرت عليه .

والذين يظنون أن « أخلاقية » الإسلام تجعل منه عبئا ثقيلا على

البشرية ، تحول دون تحقيقه في حياتهم ، إنما يستمدون هذا الشعور مما يعانيه الفرد المسلم ، حين يعيش في مجتمع لا يهيمن عليه الإسلام ..
و حين يكون الأمر كذلك يكون الإسلام بأخلاقيته عبئا ثقيلا فادحا بالفعل ، يقصم ظهور الأفراد الذين يعيشون بإسلامهم النظيف ، في المجتمع الجاهل القذر ؛ ويكاد يسحقهم سحقا !

ولكن هذا ليس هو الوضع الطبيعي الذي يفترضه الإسلام ، وهو يفرض «أخلاقيته» الرفيعة النظيفة السامقة على الناس .. إن الإسلام نظام واقعي . ومن ثم فهو يفترض أن الناس الذين يعيشون بمهجه ، يعيشون في مجتمع يهيمن عليه الإسلام . وفي هذا المجتمع يكون الخير والفضيلة والنظافة هي «المعروف» الذي يعرفه ويصونه كل القائمين على هذا المجتمع . ويكون الشر والرديلة والقذارة هي «المنكر» الذي تطارده كل القوى المهيمنة على هذا المجتمع أيضا !

و حين يستقيم الأمر - على هذا النحو - يصبح المنهج الإسلامي للحياة منهجا ميسرا شديدا التيسير . بل تصبح الصعوبة الحقيقية هي مخالفة الأفراد لهذا المنهج ؛ ومحاولتهم الاندفاع مع الشهوات الهابطة ؛ ومقارفة الشر والرديلة . لأن كل القوى المهيمنة على المجتمع حينئذ - مضافا إليها قوى الفطرة السليمة المستقيمة - تقف في وجوههم ، وتجعل طريقهم المنحرف شاقا عسيرا !

ومن هنا يحتم الإسلام أن تكون المهيمنة المطلقة على الجماعة البشرية لله والمنهج الله ؛ ويحرم أن تكون هذه المهيمنة المطلقة لأحد من خلق الله ، والمنهج من صنع غير الله . ويعد هذا كفرا صريحا أو شركا كاملا - كما

أسلفنا فى مقدمات الفصل السابق - فالإسلام له صورة واحدة ؛ هى أفراد الله سبحانه بالألوهية .. أى أفراد منهجه بالهيمنة على الحياة البشرية . لأن هذا هو المعنى المباشر القريب لشهادة أن لا إله إلا الله كما أسلفنا .

كذلك يفترض الإسلام قيام مجتمع إسلامى يعيش فى ظله الفرد المسلم بدينه هذا ، وبخلفه الذى يفرضه هذا الدين . ذلك أن الشعور الإسلامى للوجود كله ، ولغاية الوجود الإنسانى ، يختلف اختلافا جوهريا عن جميع التصورات الجاهلية - وهى التى يصوغها البشر لأنفسهم فى معزل عن هدى الله فى أى زمان وفى أى مكان - وهو اختلاف رئيسى لا مجال فيه للالتقاء فى منتصف الطريق ..

فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور ، بكل قيمه الخاصة . لابد له من وسط غير الوسط الجاهلى ؛ ولابد له من بيئة غير البيئة الجاهلية .

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامى ، وبالمنهج الذى ينبثق منه ؛ ويتنفس أنفاسه الطبيعية فى طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتى بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه ؛ وبلا عوائق من خارجه تسحقه أو تظنى عليه .

وفى هذا الوسط يحيا الفرد المسلم حياة طبيعية مريحة ؛ لأنه يتنفس أنفاسه الطبيعية ؛ ويحيد على الخير أعوانا ؛ ويحيد فى اتباع «الأخلاقية» الإسلامية راحة شعورية ، وراحة اجتماعية .

وبغير هذا الوسط تصبح حياة هذا الفرد متعذرة - أو شاقة على الأهل - ومن هنا ينبغي أن يعلم من يريد أن يكون مسلماً ، أنه لا يستطيع أن يزاول إسلامه إلا في وسط مسلم ، يهيمن عليه الإسلام . وإلا فهو واهم إذا ظن أنه يملك أن يحقق إسلامه ، وهو فرد ضائع أو مطارد في المجتمعات الجاهلية !

إن المنهج الإسلامي ميسر ، حين يعيش في وسطه هذا . وهو يفترض أن هذا الوسط لا بد من وجوده . ويقم توجيهاته كلها على هذا الأساس .

» » »

كذلك ليس صحيحاً أن هذا المنهج يكلف البشرية جهداً أشق من الجهد الذى تبذله وهي تحيا في ظل المناهج الجاهلية ..

إن المناهج الجاهلية - وهي التى يتخذها البشر لأنفسهم في معزل عن هدى الله في أى زمان وفي أى مكان - تتسم حتماً بشيء من نتائج الجهل البشرى والضعف البشرى والهوى البشرى - وذلك في أحسن حالاتها - فهي من ثم تصطدم بالفطرة البشرية اصطداماً كلياً أو جزئياً . ومن ثم تشقى بها النفس بقدر ما فيها من التصادم مع فطرتها !

ثم إنها تتسم كذلك بالعلاجات والحلول الجزئية للمشكلات البشرية . وكثيراً ما تعالج جانباً بإيذاء الجانب الآخر ؛ وتلك هي الثمرة المباشرة للرؤية الناقصة التى لا تلم بجميع الجوانب في الوقت الواحد . فإذا عادت إلى علاج الداء الجديد الذى أنشأه العلاج للداء الأول ، أنشأت داءً جديداً ... وهكذا دواليك ... كما تشهد بذلك دراسة التقلبات والأطوار التى أنشأتها النظم البشرية والمناهج البشرية ... الجاهلية ... وهذا وذلك

يكلف البشرية - ولا شك - جهوداً أشق من الجهد الذى تبذله للمنهج الكامل الشامل المستقيم مع الفطرة ؛ الذى ينظر إلى مشكلاتها كلها من جميع الجوانب ، ويضع لها العلاج الكامل الشامل ، المنبثق من الرؤية الكاملة الشاملة .

والذى يراجع سجل الآلام البشرية ، الناشئة من مناهج الجاهلية ، فى تاريخها الطويل ، لا يجرؤ على القول بأن هذا المنهج الإلهى بكل تكاليفه ، وبكل «أخلاقيته» يكلف البشرية من الجهد مالا تكلفه لها المناهج الجاهلية !

وأيسر ما فى هذا المنهج أنه - وهو يضع فى حسابه البلوغ إلى القمة السامقة - لا يعتسف الطريق ، ولا يستعجل الخطى ، ولا يتخطى المراحل .. إن المدى أمامه ممتد فسيح ؛ لا يحده عمر فرد ؛ ولا تستحته رغبة فإن يحشى أن يعجله الموت أو القوت عن تحقيق غايته البعيدة ؛ كما يقع لأصحاب المذاهب والمناهج الأرضية من البشر الفانين ؛ الذين يعتسفون الأمر كله فى جيل واحد ؛ ويتخطون الفطرة الهادئة الخطى ، ليقفزوا إلى تحقيق صورة براقة تخاليل لهم ؛ ولا يصبرون على الخطو الطبيعى الهادئ المطمئن البصير.. وفى الطريق المعتسف الذى يسلكونه تقوم المجازر ، وتسيل الدماء ، وتتحطم القيم ؛ وتضطرب الموازين .. ثم يتحطمون هم فى النهاية تحت مطارق الفطرة التى لا تصمد لها الأجهزة المصطنعة العسوف !

فأما المنهج الإسلامى فيسير هينا لينا - مع الفطرة - يوجهها من هنا ، ويدودها من هناك ؛ ويقومها حين تميل . ولكنه لا يكسرهما ولا يحطمهما

ولا يجهدها كذلك . إنه يصبر عليها صبر العارف البصير ، الواصل من
الغاية البعيدة المدى ، الأكيدة التحقيق .. والذي لا يتم في الجولة الأولى
يتم في الجولة الثانية ، والذي لا يتم في الجولة الثانية يتم في الجولة
الثالثة .. أو العاشرة .. أو المئة .. أو الألف ! كل ما هو مطلوب هو بذل
الجهد والمضى في الطريق !

وكما تنبت الشجرة الباسقة ، وتضرب بجذورها في أعماق التربة ،
وتتطاول فروعها وتشابك .. كذلك ينبت هذا المنهج في النفس والحياة .
ويمتد في بطن ، وعلى هيئة . وفي ثقة وطمأنينة .. ثم يكون ما يريد الله
أن يكون .

إن الإسلام يلقى بذوره ، ويقوم على حراستها ؛ ويدعها حينئذ تنمو
نموها الطبيعي الهادئ وهو واثق من الغاية البعيدة . ومهما يحدث من
البطء أحيانا ، ومن التراجع أحيانا ، فإن هذا شأن الفطرة .. والزراعة
قد تسقى عليها الرمال . وقد يأكل بعضها الدود . وقد يحرقها الظمأ . وقد
يغرقها الري . وقد تصاب بشق الآفات .. ولكن الزارع البصير يعلم أنها
زرعة للبقاء والنماء ، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل . فلا
يعتسف ، ولا يقلق . ولا يحاول أن ينضجها بغير وسائل الفطرة الهادئة
اليسيرة .. ومن ثم يصاحبها اليسر ، وتسهل تكاليفها على النفوس .

على أننا لا نحتاج - اليوم - إلى الحديث عما تعانیه البشرية من
اعتساف المناهج الجاهلية وأصحابها . وحسبنا ما نتجأ به من الشقوة في
مشارك الأرض ومغاربها . وما يحجر به بقية العقلاء من صيحات الإنذار
والخطر في كل مكان ..

وأخيرا فإنه ليس صحيحا أن هذا المنهج لم يعيش طويلا - كما يقول بعضهم في خبث وكيد ، وبعضهم في حماسة وغيرة ! فإن البناء الروحي والاجتماعي والسياسي ، الذي قام على أساس هذا المنهج السامق الفريد ، والذي لم يستغرق بناؤه سوى قرن واحد من الزمان - بل نصف قرن في الحقيقة - قد ظل يقاوم جميع الآفات التي تسالت إليه ، وجميع العداوات التي ساورتها ؛ وجميع الهجمات الوحشية التي شنت عليه .. أكثر من ألف عام ..

وقد ظلت هذه العوامل الرهيبة تساوره وتهاجمه وتتسلل إلى قواعده في إصرار .. ووراءها جميع قوى العالم الجاهل .. فلا تبلغ أن تحطمه من أساسه . ولكنها مع تطاول الزمان ، ومع التجمع والترصد ، ومع الإصرار والاستمرار ، ظلت تنقص منه شيئا فشيئا ، وتنحرف به عن أصوله شيئا فشيئا ؛ حتى أُنحَتْه فعلا وهددته تهديدا خطيرا .. ومع هذا كله فإنها لم تستطع - حتى اللحظة - تشويه أصوله النظرية ؛ فما تزال هذه الأصول قادرة على البعث الجديد ، حين يعتنقها جيل جديد !

ولكي ندرك قيمة هذه الحقيقة التاريخية ، ينبغي أن ننظر إلى بناء آخر ، قام على منهج جاهل .. ذلك هو بناء الدولة الرومانية .. لقد استغرق هذا البناء قرابة ألف عام . ثم تحطم فيها لا يزيد على قرن واحد تحت ضربات الهون والقوط .. ولم يبق بعد ذلك أبدا . ولا بقيت في أصوله بقية ينهض عليها بعث جديد !

وهذا هو الفارق الأساسي بين منهج الله ومنهج العبيد !

نعم إنه كانت هناك فترة فارعة في تاريخ هذا المنهج - وفي تاريخ

البشرية كله - ظلت تترأى فى التاريخ البشرى كله ، كالقمة السامقة ،
تتطاول إليها الأعناق ، وتتطلع إليها الأنظار ، وهى فى مكانها السامى
هناك !

.. وهى فترة قصيرة فعلا ..

ولكن هذه الفترة ليست هى كل العهد الإسلامى .. إنما هى منارة
أقامها الله ، لتظل البشرية تتطلع إليها ، ونحاول أن تبلغها كذلك ؛
وتتجدد آمالها فى بلوغ القمة السامقة ، وهى تدرج إليها فى المرتقى
الصاعد . ويقسم الله لها ما يقسم من المدايح فى هذا المرتقى . وهى تتطلع
دائما إلى المنارة الهادية !

حقيقة إن هذه الفترة لم تكن وليدة معجزة لا تتكرر ، وأنها كانت
ثمرة الجهد البشرى الذى بذلته الجماعة المسلمة الأولى ؛ وأنها ممكنة
التحقيق حين يذل مثل ذلك الجهد مرة أخرى ..

ولكن هذا الجهد الذى بذلته طائفة مختارة من البشر ، قد يكون
مرصودا لكثير من الأجيال البشرية القادمة - لا لجيل واحد - وقد يكون
تحقيق تلك القمة الفريدة فى ذلك الجيل الواحد ، قدرا من أقدار الله ،
لكى يقوم هذا النموذج فى صورة واقعية تمكن محاولتها ، وتمكن معرفة
خصائصها .. ثم يترك للبشرية بعد ذلك فى أجيالها المتتابعة ، أن تحاول
بلوغها من جديد ..

وقد ظل المنهج يؤدي دوره ، فيما بعد هذه الفترة ، فى مساحات
واسعة من الحياة البشرية ؛ وظل يفعل فى تصورات البشرية وتاريخها

وواقعها أجيالا طويلة ؛ وترك من ورائه آثارا وتيارات في حياة البشرية
كلها ، لعلها هي التي تجعلنا نأمل اليوم ، في إمكان البشرية أن تتطلع
إلى المحاولة من جديد ...

* * *

منهج مؤثر

على أن هذه الإشرقة اللامعة ، بلغت من التأثير الدائم في واقع الحياة البشرية ، قدر ما بلغت من البهاء والرفعة ، ومن العظمة والكمال . وخلقت في واقع البشرية التاريخي من الآثار الباقية ، ما قد يجعل الجيل الحاضر من هذه البشرية اليوم أقدر على المحاولة من سائر الأجيال التي خلت - بعد تلك الصفة المختارة من رجال الصدر الأول - وذلك بمساعدة التيارات التي أطلقتها ، والرواسب التي خلفتها ؛ في التصورات والقيم ، وفي النظم والأوضاع سواء .

وسنحاول في هذا الفصل أن نلم - في اختصار وإجمال يناسبان طبيعة هذا البحث المجلد المختصر - بلمحات عن آثار هذه الإشرقة الوضيئة الفريدة ، لا في تاريخ الأمة الإسلامية وحدها ، ولكن كذلك في تاريخ البشرية بأكملها .

﴿ ١١ ﴾

لقد استطاعت تلك الفترة أن تنشئ في واقع الحياة البشرية عددا كبيرا من الشخصيات النموذجية ، تتمثل فيها الإنسانية العليا ، بصورة غير مسبقة ولا ملحوقة . صورة تبدو في ظلها جميع الشخصيات البشرية التي نشأت في غير هذا المنهج ، أقزاما صغيرة ، أو كائنات لم تستكمل وجودها

بعد ، أو كائنات غير متناسقة على كل حال !

ولم تكن هذه الشخصيات النموذجية التي أخرجها المنهج الإلهي في تلك الفترة القصيرة آحادا تعد على أصابع اليدين ؛ إنما كانت حشدا كبيرا ؛ يعجب الباحث كيف انبثقت هكذا سائمة ناضجة إلى هذا المستوى العجيب ؛ في هذه الفترة القصيرة المحدودة . ويعجز عن تعليل انبثاقها على هذا النطاق الواسع ؛ وعلى هذا المستوى الفارع ؛ وفي مثل هذا التنوع في النماذج .. ما لم يرد هذه الظاهرة الفريدة إلى فعل ذلك المنهج الفريد .

والهم أن نعرف أن هؤلاء الناس ، الذين تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا : النماذج التي ظلت فريدة في سموقها ؛ وظلت سائر النماذج على مدار القرون تبدو في ظلها أقزاما صغيرة ، أو كائنات غير تامة الوجود .. المهم أن نعرف أن هؤلاء الناس الذين حققوا ذلك المنهج الإلهي في حياتهم على هذا النحو العجيب ، قد ظلوا - مع هذا - ناسا من البشر لم يخرجوا عن طبيعتهم ، ولا عن فطرتهم ؛ ولم يكتبوا طاقة واحدة من طاقاتهم البانية ؛ ولم يكلفوا أنفسهم كذلك فوق طاقاتهم .. لقد زاولوا كل نشاط إنساني ، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحا لهم في بيئتهم وزمانهم .. لقد أخطأوا وأصابوا ، وغثروا ونهضوا ؛ وأصابهم الضعف البشري أحيانا - كما يصيب سائر البشر - وغالبوا هذا الضعف ، وانتصروا عليه أحيانا أخرى ..

والمعرفة بهذه الحقيقة ذات أهمية قصوى . فهي تعطي البشرية أملا قويا في إعادة المحاولة ؛ وتجعل من واجبها - بل تجعل من حقها - أن

تطلع إلى هذه الصورة الوضيئة الممكنة ، وأن تظل تتطلع . فهي صورة من شأنها أن تزيد من ثقة البشرية بنفسها ، وبفطرتها ، وبمقدراتها الكامنة ، التي يمكن - عندما يوجد المنهج الصالح - أن تبلغ بها إلى ذلك المستوى الإنساني الرفيع ، الذي بلغته مرة في تاريخها .. فهي لم تبلغه بمعجزة خارقة لا تتكرر . إنما بلغته في ظل منهج من طبيعته أن يتحقق بالجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية .

ولقد انبثق ذلك الجيل الفارع العظيم ، من قلب الصحراء ، الفقيرة الموارد ، المحدودة المقدرات الطبيعية والاقتصادية والعلمية .. وعلى كل ما كان في هذه البيئة من الموافقات المكونة لهذا الانبثاق الهائل العجيب ، فإن البشرية - اليوم وغداً - ليست عاجزة بفطرتها ، ولا عاجزة بمقدراتها ، أن تنجح مرة أخرى في المحاولة ، إذا هي اتخذت ذلك المنهج قاعدة لحياتها .

ولقد ظل هذا المنهج - على كل ما ألم به على مدى الزمن من انحرافات ومن خصومات ومن هجرات - يبعث بنماذج من الرجال ، فيها من ذلك الجيل الأول الفارع مشابه ؛ وفيها منه آثار وانطباعات .. وظلت هذه النماذج تؤثر في الحياة البشرية تأثيرات قوية ؛ وتؤثر في خط سير التاريخ البشري ؛ وتترك من حولها ومن ورائها تيارات ودوامات هائلة تطع وجه الحياة ؛ وتلون سماتها .

وما يزال هذا المنهج قادرا في كل حين ، على أن يبعث بهذه النماذج ، كلما بذلت محاولة جدية في تطبيقه وتحكيمه في الحياة . على الرغم من جميع المؤثرات المضادة ؛ وعلى الرغم من جميع العوقات من حوله وفي طريقه .

والسر الكامن فيه هو تعامله المباشر مع الفطرة ؛ واستمداده المباشر من رصيدها المكون . وهو رصيد هائل ، ورصيد دائم . وحيثما التقى مع هذا المنهج تفجرت ينابيعه الثرة ؛ وفاض فيضه المكون !

واستطاعت هذه الفترة أن تقرّر في واقع الحياة البشرية مبادئ وتصورات ، وقيا وموازين ، لم يسبق أن تقررت في تاريخها كله ، بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذا العمق ، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوى كله . ولم يقع كذلك أن تقررت هذه المبادئ والتصورات والقيم والموازين في واقع البشرية مرة أخرى - وفي ظل أى منهج وأى نظام في الأرض كلها - بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذا العمق ، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوى كله .. ثم - وهذا هو الأهم - بمثل هذا الصدق والجلد والإخلاص والتجرد الحقيقى العميق .

وقد تناولت هذه المبادئ والتصورات . وهذه القيم والموازين ، كل قطاعات الحياة الإنسانية . تناولت تصور البشرية لإلهها ، وعلاقاتها به . وتصورها لهذا الوجود الذى تعيش فيه وعلاقاتها به ، وتصورها لغاية وجودها الإنسانى ومكانها في هذا الكون ووظيفتها ...

كما تناولت - تبعا لذلك - تصورها لحقيقة الإنسان ، وحقوقه وواجباته وتكاليفه ، والقيم التى توزن بها حياته ونشاطه ومكانته ، والتى تقوم عليها علاقاته بربه ، وعلاقاته بأهله ، وعلاقاته بأبناء جنسه ، وعلاقاته بالكون والأحياء والأشياء .

وما تناولته .. الحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .
والأنظمة والأوضاع والروابط التي تنظم هذه الحقوق والواجبات
وبالجملة كل قطاعات الحياة الإنسانية في شتى صورها وجوانبها الكثيرة .

وقررت في هذا كله حكمها الذي يفردا ويميزها ، ويجعل لها طابعها
الرباني الفريد ..

وقد تم هذا كله في وسط محلي معادٍ لمثل هذه المبادئ والتصورات ؛
ولهذه القيم والموازين .. وفي وسط عالمي منكر لأساس هذه المبادئ
والتصورات والقيم والموازين . وفي ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية
وعقلية ونفسية - محلية وعالمية - من شأن ظواهرها أن تصادم هذه
الاتجاهات التي قررها الإسلام في واقع الحياة البشرية ، للمرة الأولى ،
أو على الأقل لا تساعدها على الحركة الطليقة . معتمدا في نجاحه - قبل
كل شيء - على رصيد الفطرة البشرية من الاستعداد للاستقامة على المنهج
الإلهي - الموافق في صميمه لهذه الفطرة - قبل أن تغشها المؤثرات
السطحية - وعلى استثارة هذا الرصيد ، واستنقاذه من الركام الذي ران
عليه . وهو رصيد ضخم ، يكفي - حين يوجد المنهج الذي يستنقذه من
التبدد والانطمار - لمقاومة تلك المؤثرات السطحية ، التي يظن بعض قصار
النظر أنها تمثل كل شيء في حياة الإنسان .. والإسلام لا يغفل هذه
المؤثرات ولا يهمل آثارها في الحياة البشرية . ولكنه لا يقف أمامها
مستسلما ، باعتبارها «أمرا واقعا» لا فكاك منه . بل يلجأ إلى استنقاذ
رصيد الفطرة ؛ وتجميعه ، وتوجيهه ، لتعديل الواقع ، في رفق وتؤدة -
على نحو ما بينا من طريقته في العمل في الفصل السابق - وينتهي إلى مثل

ما انتهى إليه في تلك الفترة ، في مواجهة تلك الظروف الماثرة ، المحلية والعالمية ، وتحولها إلى ظروف مواتية . كما حدث بالفعل في الجزيرة العربية ، وفيما وراءها كذلك !

والبشرية اليوم قد تكون - في بعض الجوانب - أحسن حالا وظروفا منها يوم جاءها هذا المنهج ، وأحدث فيها - في فترة قصيرة - ذلك الانقلاب الشامل ، وتلك الثورة العظمى - في رفق ويسر وانطلاق - وقد تكون أقدر على العمل بهذا المنهج - للأسباب التي سنبيدها في فصل ثال - وقد تكون طاقاتها اليوم على حمله أكبر . وبخاصة حين نعرف أن رصيد الفطرة الإنسانية - على الرغم من كل ما يرسب فوقه من ركام الفساد والشر والانحراف ؛ وعلى الرغم من كل ما يبدهه ويسحقه من الأوضاع المادية والمؤثرات الاقتصادية والفكرية - قادر على أن ينتفض ، ويتجمع ، ويعمل ، حين يفلح المنهج في استنقاذه وتجميعه وتوجيهه ، وإطلاقه في الخط المتناسق مع فطرة الإنسان ، وفطرة الكون ، كما خلقها الله . وأن هذا الرصيد من الأصالة ، والعمق ، والضخامة ، بحيث يرجح سائر العوامل الأخرى ، التي تأخذ صورة «الواقع» ... فما بال إذا كان بعض هذه العوامل اليوم في صفه وفي اتجاهه ؟

إن «الواقع» الخارجى يترأى ، لمن لا يعرفون طبيعة هذا المنهج ، كما لو كان هو الحقيقة التي لا سبيل إلى تغييرها ، ولا سبيل إلى زحزحتها ، ولا سبيل إلى التمرد عليها !

ولكن هذا ليس إلا وهما كبيرا . فالفطرة البشرية «واقع» كذلك . وهى ليست على استقامة مع هذا الواقع الظاهرى ؛ بدليل أنها تشقى به

في مشارق الأرض ومغاربها . وحين تصطدم الفطرة بوضع من الأوضاع ، أو بنظام من النظم ، فقد تُغلب في أول الأمر ؛ لأن وراء هذا الوضع أو هذا النظام قوة مادية تفرضه فرضاً ؛ ولكن الذى لاشك فيه أن الفطرة أقوى وأثبت من كل وضع طارئ عليها ، ومن كل قوة تسند هذا الوضع الطارئ . ولا بد لها من أن تغلب في النهاية . وبخاصة حين يقودها منهج طبيعته من طبيعتها ..

وقد حدث هذا مرة يوم واجه ذلك المنهج الإلهي « واقع » الجزيرة العربية ، وواقع الأرض كلها . فانتصر على هذا الواقع انتصاراً رائعاً ؛ وبذلك قوائمه التصورية والعملية ؛ وأقامه على أسس جديدة .

وهذا الذى حدث لم يتم بمعجزة خارقة لا تتكرر . ولكنه تحقق - وفق سنة الله الدائمة - بجهد بشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ... فدلّت هذه السابقة على إمكان تكرار هذه الظاهرة .

فما بال إذا كانت التيارات التي أطلقتها تلك الفترة ، والرواسب التي خلفتها ، في حياة البشرية ، وفي الواقع التاريخي ، كلها عوامل مساعدة في المحاولة الجديدة ؟

واستطاعت تلك الفترة أن تقر في حياة البشرية تقاليد عملية ، وأوضاعاً واقعية - تستند إلى تلك المبادئ والتصورات والقيم والموازين - لم تمت وتذهب بانقضاء تلك الفترة . ولكنها امتدت في صورة تيار متحرك ، مندفع إلى مسافات بعيدة في الأرض ؛ وإلى أحقاب متطاولة

من الزمان . وتأثرت بها الحياة البشرية كلها - على صورة من الصور - وأصبحت رصيда للبشرية كلها ، تنفق منه وتستمد أكثر من ألف عام .. رصيда يؤثر في تصوراتها ، ويؤثر في أوضاعها ، ويؤثر في تقاليدها ، ويؤثر في علومها ومعارفها ، ويؤثر في اقتصادها وعمرانها ، ويؤثر في حضارتها كلها تأثيرات متفاوتة ، ولكنها مطردة فاعلة في كل ركن من أركان الأرض . وما تزال بقايا من ذلك التيار تعمل في واقع الحياة البشرية حتى اليوم ، على الرغم من جميع القوى التي وقفت في وجه هذا المد الغامر ، وعلى الرغم من النكسة أو النكسات إلى الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية ، في العالم الغربي ، الذي سيطر على مقاليد الأرض أحقابا متطاولة !

وقد استقرت في حياة البشرية من وراء هذه التأثيرات الواقعية مبادئ وقيم ، ونظريات وأوضاع ، قد تجهل البشرية اليوم مصدرها الأصيل ، وقد ترددها إلى مصادر أخرى غير ذلك المنهج المؤثر . ولكنه ليس من المتعذر معرفة أصلها الأول ، والرجوع بها إلى فعل المنهج الإلهي ، وآثاره في الحياة البشرية . وسنشير في فصل تال إلى بعض الخطوط العريضة التي انتهت البشرية إلى إقرارها اليوم ، وكانت منكرة لها أشد الإنكار يوم جاءها بها الإسلام ، أول مرة ، منذ نيف وثلثمائة وألف عام !

ولعله من شأن استقرار هذه الخطوط العريضة في حياة البشرية وأوضاعها الحاضرة ، بعد الإنكار الشديد لها يوم جاءها بها الإسلام أول مرة ، أن تكون البشرية اليوم أقرب - بصفة عامة - إلى تفهم هذا المنهج ، وأقدر كذلك على حمله ، ولديها منه رصيда واقعي ، خلفته

موجة المد الأول ، لم يكن لديها يوم جاءها أول مرة ! ولديها كذلك
 رصيد من تجاربها الخاصة ، في فترة التيه والشروء عن هذا المنهج ؛ وما
 أصبحت تعانيه اليوم من آثار هذا التيه وهذا الشروء - مما سبقت الإشارة
 إليه باختصار - فهذه وتلك قد تكون من العوامل المساعدة على تقبل
 المنهج الإلهي ، والصبر عليه في الجولة القادمة ... بإذن الله ..

ولعله يحسن الآن - وقد وصلنا إلى هذا الحد من الإشارات المجملة -
 أن نفصلها بعض التفصيل ، بذكر شيء من مدلولاتها الواقعية في الحياة
 البشرية ، من خلال الواقع التاريخي ، وبتفصيل شيء عن رصيد الفطرة
 الذي واجه به الإسلام واقع البشرية فانتصر عليه ، وقرر منهجه في وجه
 ذلك الواقع ..

* * *

رَصِيدُ الْفِطْرَةِ

يوم جاء الإسلام أول مرة وقف في وجهه « واقع » ضخم . واقع الجزيرة العربية ، وواقع الكرة الأرضية ! .. وقفت في وجهه عقائد وتصورات ؛ ووقفت في وجهه قيم وموازين ؛ ووقفت في وجهه أنظمة وأوضاع ؛ ووقفت في وجهه مصالح وعصبيات ...

كانت المسافة بين الإسلام - يوم جاء - وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الكرة الأرضية ، مسافة هائلة سحيقة . وكانت النقلة التي يريدون عليها بعيدة بعيدة ...

وكانت تسند « الواقع » أحقاب من التاريخ ؛ وأشتات من المصالح ؛ وألوان من القوى ؛ وتقف كلها سدا في وجه هذا الدين الجديد ؛ الذي لا يكتفى بتغيير العقائد والتصورات ، والقيم والموازين ، والعادات والتقاليد ، والأخلاق والمشاعر .. إنما يريد كذلك - وبصر - على أن يغير الأنظمة والأوضاع ، والشرائع والقوانين ، وتوزيع الأموال والأرزاق . كما بصر على استزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية ، ليردها إلى الله وإلى الإسلام !

ولو أنه قيل لكائن من كان - في ذلك الزمان - إن هذا الدين الجديد الذي يحاول هذا كله ، في وجه ذلك « الواقع » الهائل ، الذي

تسند قوى الأرض كلها ، هو الذى سيتنصر ، وهو الذى سيبدل هذا الواقع فى أقل من نصف قرن من الزمان ، لما لقي هذا القول إلا السخرية والاستهزاء والاستنكار !

ولكن هذا « الواقع » الهائل الضخم ، سرعان ما تزحزح عن مكانه ، ليخليه للوافد الجديد . وسرعان ما تسلم القائد الجديد مقادة البشرية ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ ويقودها بشريعة الله ، تحت راية الإسلام !

كيف وقع هذا الذى يبدو مستحيلا فى تقدير من يبههم « الواقع » ويسحقهم ثقله ، وهم يزنون الأمور والأوضاع ؟ ! .

كيف استطاع رجل واحد . محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. أن يقف وحده فى وجه الدنيا كلها ، أو على الأقل فى وجه الجزيرة العربية كلها فى أول الأمر ؟ أو على الأقل فى وجه قريش سادة العرب كلهم فى منشأ الدعوة ؟ وأمام تلك العقائد والتصورات ، والقيم والموازين ، والأنظمة والأوضاع ، والمصالح والعصبيات .. ثم يتنصر على هذا كله ؛ ويبدل هذا كله ؛ ويقم النظام الجديد ، على أساس المنهج الجديد ، والتصور الجديد ؟

إنه لم يتملق عقائدهم وتصوراتهم ؛ ولم يدهن مشاعرهم وعواطفهم ؛ ولم يهاند آفتهم وقيادتهم .. لم يتمسكن حتى يتمكن .. إنه أمر أن يقول لهم منذ الأيام الأولى ، وهو فى مكة ، تتألب عليه جميع القوى :

« قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد .
ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى
دين » ..

فلم يكتف بأَن يعلن لهم افتراق دينه عن دينهم ، وعبادته عن
عبادتهم ، ومفاصلتهم فى هذا مفاصلة كاملة لالقاء فيها . بل أمر كذلك
أَن ييشههم من إمكان هذا اللقاء فى المستقبل . فكرر عليهم : « ولا أنا
عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » .. وباطراد المفاصلة فى هذا
الأمر ، الذى لا التقاء فيه ! « لكم دينكم ولى دين » ..

وهو كذلك لم يبرهم بادعاء أَن له سلطاناً سرّياً ؛ ولا مزايا غير
بشرية ولا موارد سرّية . بل أمر أَن يقول لهم :

« قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا
أقول لكم إني ملك . إني أتبع إلا ما يوحى إلى » .. (الأنعام : ٥٠)

ولم يوزع الوعود بالمناصب والمغانم لمن يتبعونه ، حين يتنصر على
مخالفه : قال ابن إسحاق : « كان النبی - صلى الله عليه وسلم - يعرض
نفسه على القبائل فى الموسم - موسم الحج - يقول : « يا بني فلان . إني
رسول الله إليكم ، بأمركم أَن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ؛ وَأَن تخلعوا
ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ؛ وَأَن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ؛
وتعنفوني حتى أبين عن الله ما بعثني به »

قال ابن إسحاق : وحدثني الزهري : أَنه أتى بني عامر بن
صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ؛ وعرض عليهم نفسه . فقال رجل

منهم يقال له : بيجرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفقى من قريش لأكلتُ به العرب ! ثم قال له : أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » . قال : فقال له ، أفنهدف نحورنا للعرب ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ! فأبوا عليه ..

كيف إذن وقع الذى وقع ؟ كيف قوى ذلك الرجل الواحد على قهر كل ذلك «الواقع» ؟

إنه لم يقهره بمعجزة خارقة لا تتكرر . فقد أعلن - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يعمل فى هذا الحقل بخارقة ؛ ولم يستجب - مرة واحدة - لطلباتهم للخوارق .. إنما وقع الذى وقع وفق سنة دائمة تتكرر كلما أخذ الناس بها واستجابوا إليها ..

لقد وقع الذى وقع من غلبة هذا المنهج ، لأنه تعامل - من وراء الواقع الظاهرى - مع رصيد الفطرة المكنون . وهو رصيد - كما أسلفنا - ضخم هائل ، لا يغلبه هذا الزكام الظاهرى ؛ حين يُستفقد ويُجمَع ويُوَجَّه ، ويُطلَق فى اتجاه مرسوم !

كانت المعتقدات الفاسدة والمحرقة ترين على ضمير البشرية . وكانت الآفة الزائفة تزحم فناء الكعبة كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم . وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآفة الزائفة ، وما وراءها من سدانة وكهانة ، ومن أوضاع فى حياة الناس ،

مستمدة من توزيع خصائص الألوهية بين العباد ؛ وإعطاء السدنة والكهنة حق الاشتراع للناس ، ووضع مناهج الحياة !!!

وجاء الإسلام يواجه هذا «الواقع» كله بلا إله إلا الله . ويخاطب الفطرة التي لا تعرف لها إلها إلا الله . ويعرف الناس برهم الحق ، وخصائصه وصفاته التي تعرفها فطرتهم من تحت الأنقاض والركام .

«قل : أغبر الله أئخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم . ولا تكونن من المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسك الله بضرف فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل : أى شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم ؛ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما تشركون »

(الأنعام ١٤ - ١٩)

«قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله : قل : لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل : إني على بينة من ربي . وكذبتم به ، ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل : لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين . وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا

يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ، وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين . قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » ...

(الأنعام : ٥٦ - ٦٥)

واستمعت الفطرة إلى الصوت القديم ، الذى يخاطبها من وراء ركام الواقع الثقيل ، فى التيه العريض . وثابت إلى إلهها الواحد . وانتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل !

وعندما ثاب الناس إلى إله واحد . امتنع أن يعبد الناس الناس ووقف الجميع رافعى الرؤوس أمام بعضهم البعض . يوم انحنت كل الرؤوس للإله الواحد القاهر فوق عباده . وانتهت أسطورة الدماء المتفاضلة ، والأجناس المتفاضلة ، ووراثة الشرف والحكم والسلطان ..

ولكن كيف وقع هذا ؟

لقد كان هناك « واقع » اجتماعي ، وراءه مصالح طبقية وعنصرية ، مادية ومعنوية . واقع سائد في الجزيرة العربية ، وسائد في الأرض من حولها . واقع ليس محل اعتراض أحد ، لأن المتفعين به لا يسأونه ، والرازيين تحته لا ينكرونه !

كانت قریش تسمى نفسها « الحمس » وتفرض لنفسها حقوقا وتقاليدها ليست لسائر العرب . وتقف في الحج بالمزدلفة حين يقف الناس جميعا بعرفات ! ويقيمون على هذه الامتيازات منافع اقتصادية يفرضونها على سائر العرب . فيحتمون عليهم ألا يطوفوا بالبيت إلا في ملابس يشترونها من قریش ؟ وإلا طافوا بالبيت عراة ؟

وكانت الأرض كلها من حول الجزيرة تعج بالتفرقات القائمة على اختلاف الدماء والأجناس وتفاضلها ..

« كان المجتمع الإيراني مؤسسا على اعتبار النسب والحرف . وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ، ولا تصل بينها صلة . وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقارا لأمر أو كبير . وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها . وكان ملوك إيران لا يولون وضيعا وظيفه من وظائفهم . وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع »^(١)

(١) عن كتاب إيران في عهد الساسانيين تأليف البروفسور أوزنر سين . نقلا عن كتاب : ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ السيد أبو الحسن الندوي .

«وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي . وكان الفرس ينظرون إليهم كألهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً . فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ، لا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحدهم في مجلسهم ؛ ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم . وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وقتلات نعمهم فإنما هو صدقة وتكرم ، من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة . وخصصوا بيتاً معيناً - وهو بيت الكيانى - فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ، ويحبوا الخراج . وهذا الحق يتقل فيهم كابرا عن كابر ، وأبا عن جد ، لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، ولا ينافسهم إلا دعيّ نذل . فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك ، لا يعفون به بدلا ، ولا يرون عنه محيصا . فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيرا ملكوا عليهم طفلا . وإذا لم يجدوا رجلا ملكوا عليهم امرأة . فقد ملكوا بعد «شيرويه» ولده «أردشير» وهو ابن سبع سنين . وملك «فرخ زاد خسرو بن كسرى أبرويز» وهو طفل . وملكوا بوران بنت كسرى . وملك كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها : «ازرمى دخت» ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائدا كبيرا ، أو رئيسا من رؤسائهم ، مثل «رستم» و «جaban» وغيرهما . لأنهم ليسوا من البيت الملكي !»^(١)

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم باغطاط المسلمين للسيد أبو الحسن الندوى .

وكان نظام الطبقات في الهند من أعنف وأبشع ما يصنع الإنسان بالإنسان .

« وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي ، وألف فيه قانون مدني سياسي اتفق عليه ، وأصبح قانونا رسميا ، ومرجعا دينيا . في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن : «منو شاستر» ..

« يقسم هذا القانون الأهالي إلى أربع طبقات متميزة . وهي :

(١) البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين . (٢) شترى : رجال الحرب

(٣) ويش : رجال الزراعة والتجارة . (٤) شودر : رجال الخدمة .

ويقول «منو» مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله ! ووزع لهم فرائض وواجبات لصالح العالم . فعلى البراهمة تعليم «ويد»^(١) أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطي الصدقات . وعلى «الشترى» حراسة الناس ، والتصديق وتقديم النذور ودراسة «ويد» والعزوف عن الشهوات . وعلى «ويش» رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة «ويد» والتجارة والزراعة . وليس «لشودر» إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث !

« وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقهم

(١) الكتاب المقدس .

بالآلهة. فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وإن مافي العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر- من غير جريرة- ما شاءوا. لأن العبد لا يملك شيئا ، وكل ماله لسيده. وأن البرهمي الذي يحفظ «رك ويد» (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله : ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يمحى من البراهمة جناية ، أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعا ، وإن استحق برهمي القتل ، لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل !

«أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين (ويش وشودر) ولكنهم دون البراهمة بكثير. فيقول : «منو» إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مئة ، كما يفوق الوالد ولده !

«أما شودر «المنبوذون» فكانوا في المجتمع الهندي- بنص هذا القانون المدني الديني- أخط من البهائم ، وأذل من الكلاب. فيصرح القانون بأن «من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك. وليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزا فإن ذلك يؤذى البراهمة ! وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ، وإذا رفعه في غضب فدعت رجله ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعل الملك أن يكوى إسته ، أو يحرمه وينفيه من البلاد. وأما إذا مسه بيد ، أو سبه ، فيقتل لسانه. وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فاترا. وكفارة قتل الكلب والقطعة والضفدعة

والوزغ والغراب والبومة . ورجل من الطبقة المنبوذة ، سواء !!!^(١) .
أما الحضارة الرومانية الشهيرة فقامت على أساس الترف ، الذى يوفره
ثلاثة أرباع سكانها من العبيد ، للربع الباقي من الأشراف ! وعلى أساس
التفرقة فى نصوص القانون بين السادة والعبيد . وبين الطبقات الكريمة
والوضيعة :

جاء فى مدونة جوستنيان القانونية الشهيرة :

«ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته - إن كان من بيئة
كريمة - مصادرة نصف ماله . وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد
والنقى من الأرض»^(٢)

وبينما كان هذا «الواقع» سائدا فى الأرض كلها ، كان الإسلام
يخاطب «الفطرة» من تحت ركाम الواقع . الفطرة التى تنكر هذا كله ولا
تعرفه . وكانت استجابة الفطرة لنداء الإسلام أقوى من هذا الواقع
الثقيل .

استمعت الفطرة إلى الله - سبحانه - يقول للناس جميعا :

«يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ..

[الحجرات : ١٣]

(١) المصدر السابق .

(٢) ص ٣١٧ ترجمة عبد العزيز فهمى .

واستمعت إليه - سبحانه - يقول لقريش خاصة : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » ...

[البقرة : ١٩٩]

واستمعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول للناس جميعا : « أيها الناس . إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

واستمعت إليه يقول لقريش خاصة :

« يا معشر قريش . اشترؤا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا . ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، ما أغني عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد : سألني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » .

[متفق عليه]

استمعت الفطرة إلى النداء المستجاب ، وأزاحت عنها ركام « الواقع » وانطلقت مع المنهج الإلهي .. ووقع ما وقع وفق سنة الله المطردة ، القابلة للوقوع في كل حين .

وكان النظام الربوي هو السائد في الجزيرة العربية ، وعليه يقوم اقتصادها الأساسي . ولا يحسن أحد أنها كانت مجرد معاملات فردية في

حدود ضيقة. فقد قامت لقريش تجارة ضخمة مع الشام في رحلة الصيف ، ومع اليمن في رحلة الشتاء. وكانت توظف في هذه التجارة رؤوس أموال قريش. ولا يجوز أن ننسى أن قافلة أبي سفيان التي ترصد لها المسلمون في غزوة بدر ، ثم أفلت منهم ، وقسم الله لهم ما هو خير منها ، كانت تحوى ألف بعير موسوقة بالبضائع ! ولو كان الربا مجرد معاملات فردية محدودة ، لا نظاما شاملا للحياة الاقتصادية ما استحق من الله - سبحانه - هذه الحملة المفزعة المتكررة في القرآن ، ولا متابعة تلك الحملة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حديثه !

هذه الأموال ، وهذه الحركة التجارية ، وهذا الاقتصاد الذى يقوم عليها ، كان يقوم كله على أساس النظام الربوى. وفيه تجمعت اقتصاديات البلاد تقريبا قبيل البعثة. فكذلك كانت تقوم الحياة في المدينة. وأصحاب اقتصادها هم اليهود. والربا قاعدة اقتصاد اليهود !

وكان هذا «واقعا» اقتصاديا تقوم عليه حياة البلاد !

ثم جاء الإسلام .. جاء ينكر هذا الأساس الظالم الجارم ، ويعرض بدله أساسا آخر : أساس الزكاة والقرض الحسن والتعاون والتكافل .

«الذين يتفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون. الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا. فئن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله. ومن عاد فأولئك أصحاب

النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

[البقرة : ٢٧٤ - ٢٨١]

ووجدت الفطرة أن دعوة الله خير مما هي فيه . واشمأزت من الأساس الهابط الذى يقوم النظام الربوى عليه . ومع مشقة الانتقال فى الأوضاع الاقتصادية التى تقوم عليها حياة الناس ، فقد كانت استجابة الفطرة أقوى من ثقل «الواقع» . وتطهر المجتمع المسلم من تلك اللوثة الجاهلية . وكان ما كان . وفق سنة الله التى تتكرر كلما دعت الفطرة فاننفضت من تحت الركाम والأنقاض !

٢ ٢ ٢

ونكتفى فى هذا الفصل بهذه الأمثلة الثلاثة من مغالبة الفطرة للواقع ، وانتفاضها من تحت الركام والأنقاض ، وانتصارها على الواقع الخارجى الذى أنشأته الجاهليات .. وهى تمثل واقع العقيدة والتصور . وواقع الأوضاع والتقاليد . وواقع الاقتصاد والتعامل .. وهى أقوى ألوان

«الواقع» الذى يراه من لا يدركون قوة العقيدة ، وقوة الفطرة ، وكأنه هو الحقيقة الساحقة التى لا قبل بها لفطرة ولا عقيدة !

إن الإسلام لم يقف مستسلماً عاجزاً مكتوف اليدين أمام هذا «الواقع» . ولكنه ألغاه ، أو بدله ، وأقام مكانه بناءه السامق الفريد ، على أساسه القوى العميق .

وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى . فقد حدث ما حدث وفق سنة جارية ، لا وفق معجزة خارقة . وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدخر لكل من يستنفذ هذا الرصيد ، ويجمعه ، ويوجهه ، ويطلقه فى اتجاهه الصحيح .

والبشرية اليوم قد تكون أقدر على هذا الاتجاه الصحيح . بما استقر فى تاريخها وفى حياتها من آثار ذلك المد الأول ، الذى واجه أقى المعارضة ، ثم انساح فى طريقه ، وخلف من بعده أعماق الآثار ..

* * *

رَصِيدُ التَّجَرُّبَةِ

عندما واجه الإسلام البشرية - أول مرة - كان يواجه هذا الواقع برصيد الفطرة وحده . كان رصيد الفطرة مع هذا الدين ؛ على الرغم من الأجيال الطويلة التي انقضت وهي تراكم فوقه أنقاض الواقع الجاهلي العريض .. ولكن انتفاض الفطرة كان أقوى من كل ذلك الركام ؛ وكانت استجابة الفطرة كافية لنفض ذلك الركام .

وكانت تلك الفترة العجيبة . وكانت تلك القمة السامقة . وكان ذلك الجيل الفارع . وكانت تلك المنارة الوضيئة .. كانت - كما قلنا - قدرا من أقدار الله ، وتديرا من تدبيره ، لتتجسم هذه الصورة الفريدة ، في أوضاع حياة واقعية ، يمكن - فيما بعد - الرجوع إليها في صورتها الواقعية ، ومحاولة تكرارها على مدى الزمن ، بقدر ما تنهأ لها البشرية ! إنها لم تكن ثمرة طبيعية لبثتها - وقتذاك - ولكنها كانت ثمرة الرصيد المتجمع للفطرة ؛ عندما وجدت المنهج والقيادة والتربية والحركة التي تجمع هذا الرصيد وتدفعه هذه الدفعة القوية ..

ولكن البشرية - بحملتها - لم تكن قد نهأت بعد للاستقامة طويلا على تلك القمة السامقة . التي تسنمها تلك الجماعة المختارة على عين الله .. فلما انساح الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بتلك السرعة العجيبة

التي لم يعرف لها التاريخ نظيرا ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأصبحت كثرة الأمة الإسلامية ليست هي التي تلت تلك التربية الفريدة العميقة البطيئة التي تلتها الجماعة المختارة ..

لما وقع هذا كله أخذ ضغط الرواسب الجاهلية في نفوس الجاهير الغفيرة ، والكثرة الكاثرة في جموع الأمة التي دانت للإسلام «بثقل» ويجذب الجسم كله من تلك القمة السامقة ، إلى الأرض المستوية ! الجسم الذي لا يرفعه إلى تلك القمة السامقة إلا الوثبة الكبرى ، التي وثبها تلك الجماعة المختارة ، بدفعة التربية الفريدة العميقة البطيئة ، التي جمعت رصيد الفطرة وأطلقته في هذا الاتجاه البعيد !

ومن ثم استوى المجتمع المسلم - قرابة ألف عام - لا على تلك القمة السامقة ؛ ولكن في مستويات متفاوتة ، كلها أرفع من مستويات المجتمعات الأخرى في أرجاء الأرض ، وذلك مع استمداد تلك المجتمعات من ذلك المجتمع الرفيع ؛ كما شهد التاريخ المنصف . وما أقل التاريخ المنصف !

« ، ، »

تلك الوثبة الكبرى الفريدة في تاريخ البشرية ؛ وهذه الألف عام من المستويات الرفيعة .. لم تذهب كلها سدى ، ولم تتبدد من عالم الحياة ضياعا ، ولم تترك البشرية بعدها كما تسلمتها من قبل .

كلا ! فليس ذلك من سنة الله في الحياة والناس . فالبشرية وحدة متماسكة على مدار الزمان ، وجسم البشرية جسم حي ؛ ينتفع بزا

التجارب ، ويدخر رصيد المعرفة . ومهما تجمع فوقه ركام الجاهلية التي ارتدت إليها البشرية ؛ ومهما ران عليها العمى والظلام ؛ فإن الرصيد باق مكنون ، بل هو سار في الجسم على العموم !

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام في المرة الأولى ، لم تجد إلا رصيد الفطرة تواجه به واقع البشرية (وذلك دون أن تغفل الرصيد الضئيل المتبقى كالذبالة من بقايا الرسائل الأولى التي كانت رسالات في أقوام ، ولم تكن للبشر كافة كالإسلام) فإنها اليوم تجد إلى جانب رصيد الفطرة المكنون ، رصيد الموجة الأولى لهذا المنهج الإلهي في حياة البشرية جمعاء - من آمن بالإسلام ، ومن دخل في حكم الإسلام ، ومن تأثر على البعد بالمد الإسلامي العريض - كما تجد رصيد التجارب البشرية المريرة ، التي عانتها في التيه ، حين بعدت عن الله ، وعانت في ذلك التيه مرارة الحياة !

والمبادئ والتصورات ، والقيم والموازين ، والنظم والأوضاع ، التي واجه بها الإسلام البشرية أول مرة وليس معه إلا رصيد الفطرة فأكثرتها أشد الإنكار ؛ وتنكرت لها كل التنكر ؛ وقاومتها كل المقاومة ؛ لأنها - يومذاك - كانت غريبة كل الغرابة ؛ وكانت المسافة بينها وبين واقعها حقيقة هائلة ...

هذه المبادئ والتصورات ، والقيم والموازين ، والأنظمة والأوضاع ، قد استقرت في حياة جماعة من البشر - وهي في صورتها الكاملة - فترة من الزمان . ثم استقرت في حياة العالم الإسلامي العريض - في مستويات متفاوتة - فترة طويلة أخرى . ثم عرفت في حياة

الجماعة البشرية كلها تقريبا ، خلال نيف وثلاثمئة وألف عام .. عرفت على الأقل دراسة ورؤية وفرجة ! إن لم تعرف مزاولة وعملا وتجربة ! ومن ثم لم تعد غريبة - على البشرية - كما كانت يوم جاءها بها الإسلام أول مرة . ولم تعد منكورة في حسها وعرفها كما كانت يومذاك ! حقيقة إن البشرية لم تتذوقها قط ، كما تذوقتها الجماعة المختارة ، وفي تلك الفترة الفريدة . وحقيقة إنها حين حاولت تطبيق بعضها في أزمنة متفاوتة - بما في ذلك العصر الحديث - لم تدرك روحها قط ، ولم تطبقها بهذه الروح . وحقيقة إنها - حتى اللحظة - ما تزال تطلع وهى تدرج في المرتقى الذى وثبت إليه الجماعة المسلمة الأولى ..

كل هذا صحيح . ولكن البشرية يجعلها - من الناحية التصورية الفكرية - قد تكون أقرب إلى إدراك طبيعة ذلك المنهج ، وأقدر على حمله كذلك - منها يوم جاءها أول مرة ، غريبا عليها كل الغرابة .

والأمثلة المحددة تقرب هذه الحقيقة وتوضحها . ونحن نكتفى بذكر القليل منها دون الإحاطة بها . وذلك لاعتبارين هامين :

أولها : طبيعة هذا البحث المجلد المختصر ، الذى لا يزيد على أن يكون مجرد إشارات دالة إلى عناصر الموضوع الكبير الذى يتناوله موضوع « هذا الدين » .

وثانيهما : أن الخطوط العريضة التى تركتها موجة المد الطويلة لهذا

المنهج ، في حياة البشرية كلها ، وفي أنحاء الأرض جميعاً ، أكثر عدداً ، وأضحى أثراً ، وأوسع مساحة ، من أن يحيط بها كاتب واحد ، في بحث واحد ، وفي عصر واحد . فهذه الآثار قد ترسبت في حياة البشرية كلها ، منذ ذلك العهد البعيد ؛ وشملت حياة البشرية كلها على نطاق واسع ؛ وتأثرت به جوانب قد لا تكون كلها ظاهرة ، وقد لا تكون كلها مما سجلته الملاحظة .

وإنه يمكن القول - على وجه الإجمال - أن هذه الظاهرة الكونية ، التي تجلت على هذا الكوكب الأرضي ، وتمت في حياة هذه البشرية .. وهى ظاهرة هذا الدين .. لم تدع جانباً واحداً من حياة البشرية منذ ذلك التاريخ ، إلا وتجلت فيه وتركت فيه تأثيراً تتفاوت درجاته ، ولكنه واقع لا شك فيه . وإن كل حركة من حركات التاريخ الكبرى قد استمدت مباشرة أو غير مباشرة من ذلك الحدث الكبير ؛ أو - بتعبير أصح - من هذه الظاهرة الكونية الضخمة .

إن حركة الإصلاح الديني ، التي قام بها مارتن لوتر وكالفن في أوروبا . وحركة الإحياء التي تنفقت منها أوروبا حتى اليوم - وحركة تحطيم النظام الإقطاعي في أوروبا ، والانطلاق من حكم الأشراف . وحركة المساواة وإعلان حقوق الإنسان التي تجلت في المابجا كارتا في إنجلترا والثورة الفرنسية في فرنسا . وحركة المذهب التجريبي التي قام عليها مجد أوروبا العلمي ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة في العصر

الحديث .. وأمثالها من الحركات الكبرى ، التي يحسبها الناس أصولا في التطور التاريخي .. كلها قد استمدت من ذلك المد الإسلامي الكبير ، وتأثرت به تأثرا أساسيا عميقا ..

جاء في كتاب «ضحى الإسلام» للدكتور أحمد أمين :

«ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام - من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي - أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين - ظهرت في سبانيا (Septmania)^(١) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القس وأن ليس للقس حق في ذلك ؛ وأن يضرب الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم . والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأجبار . فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف !

وكذلك قامت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) . ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد - أي في القرن الثالث والرابع الهجري - ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل . فقد أصدر الإمبراطور الروماني «ليو» الثالث أمرا سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمرا آخر في سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع . على حين كان البابا «جريجوري الثاني والثالث» و «جرمانوس» بطريرك القسطنطينية ، والإمبراطورة «إيريني» من مؤيدي عبادة الصور . وجرى بين الطائفتين نزاع شديد ؛ لا محل لتفصيله . وكل ما نريد أن نذكره أن

(١) سبانيا مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والقائيل كانت متأثرة بالإسلام. ويقولون إن كلوديوس (Cloudius) أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣هـ) والذى كان يحرق الصور والصليبان ، وبنى عن عبادتها فى أسقفيته ولد وربى فى الأندلس الإسلامية .

... «كذلك وجدت طائفة من النصارى ،، شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوجدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح^(١) .

وحينما عادت جيوش الصليبيين المتبررة مرتدة عن الشرق الإسلامى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، عادت ومعها صورة من حياة المجتمع الإسلامى . وعلى كل ما كان قد وقع من الانحرافات فى هذا المجتمع ، فإن الظاهرة البارزة فيه - بالقياس إلى ذلك القطيع الصليبي المتبرر - كانت ظاهرة الشريعة الواحدة ، التى يخضع لها الحاكم والمحكوم ؛ والتى لا تستمد من إرادة الشريف أو هوى صاحب الإقطاعية - كما كان الحال فى أوروبا ؛ وظاهرة الحرية الشخصية فى اختيار نوع العمل ومكان الإقامة ؛ وظاهرة الملكية الفردية وحرية الاستثمار ؛ وظاهرة انعدام الطبقة الوراثية واستطاعة كل فرد فى أى وقت أن يرتفع بدرجة فى المجتمع وفق جده واجتهاده وعمله . هذه الظواهر البارزة ، التى لا تخطئها عين الأوربي

(١) ضحى الإسلام ص ١٦٤ - ١٦٥

الذى كان يعيش فى نظام الإقطاع ، رقيقاً للأرض ، قانونه هو إرادة السيد ، وطبقته حتمية لأن « الشرف » ورائى !

ومن هنا - بمساعدة العوامل الاقتصادية الأخرى فى حياة المجتمع الأوربى - انطلقت الصيحات التى حطمت النظام الإقطاعى تدريجياً ؛ وأعلنت تحرير الأفراد من رق الأرض . وإن لم تحررهم من سائر القيود الأخرى . ولم ترفع مجتمعتهم إلى مستوى المجتمع الإسلامى !

ومن جامعات الأندلس ، ومن تأثير حضارة الشرق الإسلامى ، التى أصبحت حضارة عالمية ؛ ومن الترجحات الأوربية لتراث العالم الإسلامى انبثقت حركة الإحياء الأوربية فى القرن الرابع عشر وما تلاه . وانبثقت كذلك الحركة العلمية الحديثة ، وبخاصة الطريقة التجريبية :

يقول « بريفولت » مؤلف كتاب : « بناء الإنسانية » :

(Making of Humanity) .

« لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية^(١) على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التى ولدتها

(١) يلاحظ أن الكتاب الغربى يحرصون على تسمية الحضارة الإسلامية باسم الحضارة العربية . وذلك عن خبث ومكر منهم . فكلمة إسلامية . ثقيلة على قلوبهم . وهم بهذا يريدون حصر الإسلام فى العربية . والإسلامية أوسع من هذا النطاق الضيق الصغير . وهم يريدون كذلك إحياء العنصرية البغيضة بين الجماعات الإسلامية . التى أماتها الإسلام . وكلها أغراض مأكرة خبيثة !!!

ثقافة العرب في أسبانيا ، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة ، التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفي المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى .

ويستطرد فيقول :

«إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة ؛ بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا : إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ، ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي .. كل ذلك كان غربيا تماما عن المزاج اليونانى . أما ما ندعو «العلم» فقد ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من

الاستقصاء مستحدثة . من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي^(١) .

وقبل ذلك يقول :

« وإن «ردجر بيكون» درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة «أكسفورد» على خلفاء معلميه العرب في الأندلس . وليس له «ردجر بيكون» ، ولا لسميه «فرنسيس بيكون» الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن ردجر بيكون ، إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب في عصر «بيكون» قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربيع أوروبا .

« من أين استقى «ردجر بيكون» ما حصله من العلوم ؟

« من الجامعات الإسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذي خصصه للبحث في البصريات ، هو في

(١) عن كتاب «تجديد التفكير الديني في الإسلام» تأليف الفيلسوف محمد إقبال . وترجمة الأستاذ عباس محمود ص ١٤٩ - ١٥٠ .

حقيقة الأمر نسخة من كتاب «الناظر لابن الهيثم»^(١) .

ويقول درير الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه : «التزاع بين العلم والدين» :

«تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ؛ وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم ، الأسلوب التجريبي ، والدستور العملي الحسي .

«إن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية في التقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم ، وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية - الذي يعتبر مذهباً حديثاً - كان يدرس في مدارسهم . وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه . وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن^(٢) .. وقد استخدموا علم الكيمياء في

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ من الترجمة العربية .

(٢) يجب الاحتراس من مثل هذا القول ، الذي يلقيه المؤلفون الغربيون ، في معرض إنصافهم للإسلام والتفكير الإسلامي . فذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس ، شئ آخر غير ما قرره المسلمون في بحثهم العلمي المؤمن بالبرء ، من لوثه الهروب من الكنيسة ومن إله الكنيسة في العالم الغربي ! وقد لاحظ علماء المسلمين التدرج بين مراتب الخلاق . وبدأوا من صفات المادة الجامدة ورأوا أنها تنتهي عند أول مراتب الحياة النباتية ورأوا أن هذه تنتهي عند أول مراتب الحياة الحيوانية ثم تترقى هذه الحياة . ولكنهم ردوا كل ذلك إلى تقدير الله وفاعلية الله . أما دارون فقد =

الطب ، ووصلوا في علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة ، ووصلوا في نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأي اليوناني القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي ، وقالوا بالعكس . وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها . وقد اكتشف الحسن ابن الهيثم الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو ، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهر حقيقة في الأفق ؛ وكذلك نراهما في المغرب بعد أن يغيبا بقليل ^(١) .

ونكتفي بهذا القدر من الآثار الواقعية للمنهج الإسلامي وللحياة الإسلامية ، في تاريخ البشرية ، وفي الحركات العالمية الكبرى . نكتفي

= حرص على نفي تدخل أى عنصر غيبى في النشوء والارتقاء . لأنه كان هارياً من الكنيسة ومن إله الكنيسة الذى باسمه تفضد العلم والبحث العلمى على الإطلاق .. كذلك لم تنطرق إلى بحوث علماء المسلمين لوثمة تحقير الإنسان وتجريده من كل عنصر روحى ورده إلى أصل حيوانى . فالنظرية الإسلامية صريحة في أن الإنسان خلق مستقل . وإن كان يجلس على قمة مراتب الكائنات الحية من حيث تكوينه العضوى واستعداداته العقلى والروحى . ولكنه كان هكذا لأن الله سبحانه أنشأه ابتداء كما أنشأ سائر الخلائق في مراتبها التى وجدت عليها .. فهناك فارق كبير في أصل النظرة مع سبق المسلمين في البحث العلمى .

(١) عن كتاب : الإسلام دين علم لخالد للأستاذ محمد فريد وجدى ص ٢٣٣ طبعة ثانية .

بهذا القدر بوصفه مجرد إشارة إلى هذه الحقيقة. الضخمة الممتدة الأطراف
التي كثيرا ما ننساها ، ونحن نشهد البناء الحضارى الراهن ؛ ونخيل إلينا -
في سذاجة وغفلة - أنه لا نصيب لنا فيه ، ولا أثر لنا في نشأته ؛ وأنه
شئ أضخم منا ومن تاريخنا الذى نجهله مع الأسف الشديد ؛ ثم نتلقاه
من أفواه أعدائنا ؛ الذين لا هم لهم إلا أن يملأوا قلوبنا باليأس من
إمكان الحياة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامى . وهم أصحاب مصلحة
في هذا اليأس ؛ لأنه يؤمنهم من الكرة عليهم ، ومن استرداد زمام
القيادة العالمية منهم .. فما بالنا نحن ياترى نتلقف ما يقولونه ، ونردده
كالبغاوات والقروء ؟

وعلى أى فهذا ليس موضوعنا هنا . إنما نحن نمهّد بهذه الإشارة إلى
إشارة أخرى نحو الخطوط العريضة التي خطتها المد الإسلامى الأول ؛
وعرفها للبشرية ؛ فأصبحت البشرية اليوم أقدر على إدراكها وتصورها .
وهى الرصيد الجديد الذى يضاف إلى رصيد الفطرة القديم !

* * *

خُطُوطٌ مُسْتَقَرَّة

عندما انحسرت موجة المد الإسلامي العالية عن هذه الأرض ؛ وحينما استردت الجاهلية زمام القيادة ، التي كان الإسلام قد انتزعها منها ؛ وعندما عاد الشيطان ينفذ غبار المعركة عن كاهله ، وينفض من عثرته ، ويهتف لحزبه الذي عاد يتسلم الزمام !

عندما حدث هذا كله لم ترتد حياة البشرية تماما إلى أوضاعها المتخلفة في الجاهلية الأولى .. لقد كان الإسلام هناك - حتى وهو يتراجع عن مكان الصدارة في الأرض - وكانت هنالك من ورائه خطوط عريضة ، ومبادئ ضخمة ، قد استقرت في حياة البشرية ، وصارت مألوفة للناس ، وزالت عنها الغرابة التي استقبلوها بها يوم جاءهم بها الإسلام أول مرة .

هذه الخطوط العريضة ، وهذه المبادئ الضخمة هي التي سنحاول الإشارة إلى نماذج قليلة منها في هذا الفصل على سبيل الإجمال .

إنسانية واحدة :

من العصبية القبلية ، بل عصبية العشيرة ، بل عصبية البيت ، التي

كانت تسود الجزيرة العربية .. ومن عصية البلد ؛ وعصية الوطن ؛
وعصية اللون ؛ وعصية الجنس .. التي كانت تسود وجه الأرض كله ..

من هذه العصيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في
ذلك الزمان ، جاء الإسلام ليقول للناس : إن هناك إنسانية واحدة ،
ترجع إلى أصل واحد ، وتتجه إلى إله واحد . وإن اختلاف الأجناس
والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العنائر والآباء ... كل
أولئك لم يكن ، ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينزولوا . ولكن
ليتعارفوا ويتآلفوا ؛ وتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ؛ ويرجعوا
بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها . وقال لهم
الله سبحانه في القرآن الكريم :

«يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير» ...
(الحجرات : ١٣)

«يأياها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق
منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به
والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا» ...

(النساء : ١)

«ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ،
إن في ذلك لآيات للعالمين» ...

(الروم : ٢٢)

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ؛ ولكنها كانت أوضاعا عملية .. لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة ؛ تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان .. وذابت كلها في النظام الإسلامى . ولم تقف وراثته لون ، ولا وراثته جنس ، ولا وراثته طبقة ، ولا وراثته بيت ، دون أن يعيش الجميع إخوانا ؛ ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤمله له استعداداته الشخصية . وما تكفله له صفته الإنسانية .

واستقر هذا الخط العريض في الأرض ؛ بعد أن كان غريبا فيها أشد الغرابة ، ومستكبرا فيها كل الاستنكار .. وحتى بعد انحسار المد الإسلامى لم تستطع البشرية أن تمنكر له كل التنكر ؛ ولم تعد تستغربه كل الاستغراب ..

حقيقة : إنها لم تستطع أن تمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة ؛ ولم يستقر فيها استقراره في المجتمع الإسلامى .

وحقيقة : إن عصبية شتى صغيرة ما تزال تعيش . عصبية الأرض والوطن . وعصبية الجنس والقوم . وعصبية اللون واللسان . وحقيقة : إن الملونين في أمريكا وجنوب إفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مسترة في أوروبا كلها !

ولكن فكرة الإنسانية الواحدة ما تزال خطأ عريضا في هتافات البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذى خطه الإسلام هو أصل التفكير البشرى - من الناحية النظرية - وما تزال تلك العصبية الصغيرة تنبغ وتختفى ؛ لأنها ليست أصيلة ولا قومية !

لقد انحسر المد الإسلامي الأول ، الذى استمد من رصيد الفطرة وحده ما خط به هذا الخط العريض . ولكنه ترك للمد التالى رصيد الفطرة ورصيده الذاتى . لتستمد منه الجولة القادمة . والبشرية أكثر إدراكا ، وأكثر استعداداً ، وقد زالت عنها دهشة المفاجأة بهذا الخط الجديد !!!

انسانية كريمة :

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة .. أما الغناء . غناء الجاهير . فهو غناء ! لا وزن له ولا قيمة ، ولا كرامة ! غناء !!!

وقال الإسلام كلمته المدوية : إن كرامة الإنسان مستمدة من «إنسانيته» ذاتها لا من أى عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو المنصب ... إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة .. والحقوق الأصيلة للإنسان مستمدة إذن من تلك الإنسانية . التى ترجع إلى أصل واحد كما أسلفنا .

وقال لهم الله فى القرآن الكريم :

«ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»

(الإسراء : ٧٠)

«وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة»

(البقرة : ٣٠)

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر
وكان من الكافرين»

(البقرة : ٣٤)

«وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه» .

(الحجرات : ١٣)

وعلم الناس منذئذ : أن الإنسان - بحسنه - كريم على الله . وأن
كرامته ذاتية أصيلة ؛ لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا
قومه ، ولا عشيرته ، ولا بيته . ولا عرضاً من هذه الأعراض الزائلة
الرخيصة . إنما تتبع كونه إنساناً من هذا الجنس الذى أفاض عليه ربه
التكريم .

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ، إنما كانت واقعا عمليا ، تمثل فى
حياة الجماعة المسلمة ، وانساجت به فى أرجاء الأرض ، فعلمته للناس ،
وأقرته فى أوضاع حياتهم كذلك . وعلمت جمهور الناس .. ذلك
الغناء .. أنه كريم ، وأن له حقوقا ، هى حقوق الإنسان ، وأن له أن
يحاسب حكامه وأمرائه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضميم والمهانة .
وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير
من الناس ، وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد من ليس بحاكم ولا
أمير .

وكان هذا ميلاداً جديداً «للإنسان» .. ميلاداً أعظم من الميلاد
الحسى .. فما الإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان وكرامة الإنسان ؟
وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته وبحقيقته التى لا تتخلف
عنه فى حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر - رضى الله عنه - عهده بقوله :

«لقد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى . وإن
أسأت فقومونى . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيته فلا طاعة لى
عليكم» ...

وخطب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال يعلم الناس حقوقهم
تجاه الأمراء :

«يا أيها الناس . إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا بأشاركم . ولا
ليأخذوا من أموالكم . ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم .
فمن فعل به شئ من ذلك فليرفعه إلى . فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه
منه .. » فوثب عمرو بن العاص فقال :

«يا أمير المؤمنين أرايتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ،
فأدب بعض رعيته . إنك لتقص منه ؟ »

«قال عمر : إني والذى نفس عمر بيده . إذا لأقصنه منه . وكيف
لا أقص منه . وقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقص من

نفسه . ألا لا تضربوا الناس فتدلوهم . ولا تجحروهم^(١) ففتنتوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .

وكتب عثمان - رضى الله عنه - إلى جميع الأمصار كتابا قال فيه :
« إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فلا يرفع على شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته . وليس لى ولا لعمالي حق قبل الرعية لا متروك لهم . وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون . فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، منى أو من عمالي . أو تصدقوا ، إن الله يجزى المتصدقين » .

والمهم - كما أسلفنا - أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية ؛ أو مجرد كلمات تقال . فقد طبقت تطبيقا واقعيا ؛ وسرت فى أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية .

وحادثة ابن القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر واليها فسيقه فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأقصه منه فى موسم الحج وعلى ملأ من الناس .. حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر... ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحررى الذى أطلقه الإسلام فى ضمائر الناس وفى حياتهم ..

(١) لا تجحروهم . لا تبعدهم طويلا عن بيوتهم وأزواجهم .

فصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح وبالإسلام . وهذا القبطى قبطى لم يزل على دينه ، فرداً من جماهير البلد المفتوح . وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم ، وأول أمير عليه من قبل الإسلام .. وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامى هم الرومان : أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات ! ولعل ذلك القبطى كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان !

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الإسلام فى أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وذلها ؛ وأطلقه إنسانا حرا كريما ؛ يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه ، بعد اشتراكهما فى سباق ، وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريح على أن يركب من مصر الى المدينة ، لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا ، ولكن جملا ، ينجب به ويضع الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكو إلى الخليفة .. الخليفة الذى حرره يوم فتح بلده تحت راية الإسلام ! والذى علمه الكرامة بعد أن نسبها تحت وقع سياط الرومان !

وهكذا ينبغي أن نفهم ؛ وأن ندرك عمق المد الإسلامى التحررى فليست المسألة فقط أن عمر عادل ؛ وأن عدله لا تتناول إليه الأعناق فى جميع الأزمان ، ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر - المستمد من الإسلام ومنهجه ونظامه - قد انطلق فى الأرض تيارا جارفا محمرا مكروما للإنسان .. بصفته « الإنسان » ..

هذا المستوى الرفيع لم ترتفع إليه الإنسانية قط .. هذا صحيح .. ولكن هذا الخط العريض الذى خطه الإسلام ، فى كرامة الإنسان

وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه ، قد ترك في حياة البشرية آثارا لا شك فيها . وبعض هذه الآثار هو الذي يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان «حقوق الإنسان» ..

وحقيقة أن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعي في حياة البشرية . وحقيقة أن «الإنسان» ما يزال يلقي المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان في شتى أنحاء الأرض . وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الإنسان وكرامته وخصائصه العليا في سبيل وفرة الإنتاج وهضاعفة الدخل ، والتفوق في الأسواق !

كل هذا صحيح . ولكن هذا الخط ما يزال قائما في مدارك البشرية وتصوراتها . ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الإسلام . وهي اليوم أقدر على إدراكه وتصوره ، حينما تخاطب به في الجولة القادمة بإذن الله .

أمة واحدة :

وجاء الإسلام فوجد الناس يتجمعون على آصرة النسب ، أو يتجمعون على آصرة الجنس ، أو يتجمعون على آصرة الأرض ، أو يتجمعون على آصرة المصالح والمنافع القريبة .. وكلها عصبية لا علاقة لها بيوهر الإنسان ، إنما هي أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم . وقال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير ، الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديدا أخيرا .

قال : إنه لا لون ولا جنس ، ولا نسب ولا أرض ، ولا مصالح

ولا منافع ، هي التي تجمع بين الناس أو تفرق .. إنما هي العقيدة .. هي علاقتهم بربهم التي تحدد علاقتهم بعضهم ببعض . فعلاقتهم بالله هي التي منحتهم إنسانيتهم . ومن ثم فهي التي تقرر مصائرهم في الدنيا والآخرة سواء . إن النسخة التي جاءتهم من روح الله هي التي جعلت من الإنسان إنسانا ؛ وهي التي كرمت هذا الإنسان وسخرت له ما في السماوات وما في الأرض . فعلى أساس هذه الحقيقة يتجمع الناس أو يفترقون إذن ؛ لا على أساس أى عرض آخر طارئ على حقيقة الإنسان .

إن آصرة التجمع هي العقيدة ، لأن العقيدة هي أكرم خصائص الروح الإنساني . فأما إذا انبثت هذه الوشيجة فلا آصرة ، ولا تجمع ، ولا كيان !

إن الإنسانية يجب أن تتجمع على أكرم خصائصها ، لا على مثل ما تتجمع عليه البهائم من الكلاء والمرعى ، أو من الحد والسياح !
إن هناك حزبين اثنين في الأرض كلها : حزب الله وحزب الشيطان . حزب الله الذي يقف تحت راية الله ويحمل شارته . وحزب الشيطان وهو يضم كل ملة وكل فريق وكل شعب وكل جنس وكل فرد لا يقف تحت راية الله .

والأمة هي المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة . وهي جنسياتها . وإلا فلا أمة ، لأنه ليست هناك آصرة تجمعها .. والأرض ، والجنس ، واللغة ، والنسب ، والمصالح المادية القريبة ، لا تكفي واحدة منها ، ولا تكفي كلها لتكوين أمة ، إلا أن تربط بينها رابطة العقيدة .

الآصرة فكرة تعمر القلب والعقل ، وتصور يفسر الوجود والحياة .. ويرتبط بالله ، الذى من نفخة روحه صار الإنسان إنسانا ، وافترق عن البهائم والوحوش ، وافترق تجمعه عن تجمعها ، وامتاز بالتكريم من الله .

وقال الله للمؤمنين به فى كل أرض ، وفى كل جيل ، ومن كل جنس ولون ، ومن كل فريق وقبيل ، على مدار القرون ، من لدن نوح عليه السلام ، إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - وإلى آخر الزمان :
« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .

(الأنبياء : ٩٢)

وفاضل بين الناس بعضهم وبعض على أساس العقيدة ؛ مهما تكن روابط النسب بينهم ، ووشائج الجنس والأرض . فقال :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يؤادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

(المجادلة : ٢٢)

وجعل هنالك سببا واحدا للقتال - حيثما لا يكون بد من القتال - هو الجهاد فى سبيل الله . وحدد هدف المؤمنين وهدف غير المؤمنين تحديدا حاسما صريحا :

«الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله - والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا» .

(النساء : ٧٦)

وكان غريبا على البشرية كلها في ذلك الزمان ، أن يتجمع الناس على عقيدة ، وألا يتجمعوا على أرض ، ولا على جنس ، ولا على لون ، ولا على تجارة ، ولا على أى عرض من الأعراض الزهيدة !

كانت هذه «المذهبية» بتعبير العصر الحاضر ، مسألة غريبة جدا يوم جاء بها الإسلام .. ولكن هامى ذى البشرية في الأيام الحاضرة تستسيغها ، فتتجمع أوطان وأقوام ولغات وألوان وأجناس شتى .. على .. على مذهب !

حقيقة إنها لا تتجمع على عقيدة في الله ، إنما تتجمع على مذهب في الاقتصاد أو الاجتماع .. ذلك أن البشرية هابطة . الأعراض القريبة أكرم عليها من الحقيقة الكبيرة . ولكنها على أية حال تدرك أن رابطة التجمع يمكن أن تكون عقيدة . يمكن أن تكون فكرة . يمكن أن تكون رابطة معنوية !

وهذا تقدم على كل حال !

وبقى أن ترتفع البشرية ، وأن تتطلع إلى ما هو أكرم وأعلى . وأن تدرج في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة . على حذاء الإسلام في الجولة القادمة . مزودة برصيد الفطرة القديم ؛ ومستعينة كذلك بهذا الرصيد الجديد !

» «

ذمة وخلقى :

... ولكن الإسلام حين جمع الناس على آصرة العقيدة ، وجعلها هى قاعدة التجمع أو قاعدة التفرقة لم يجعل الإكراه على العقيدة قاعدة الحركة فيه ، ولا قاعدة التعامل . ولم يجعل شريعة الغاب والنايب هى التى تحكم علاقاته بالآخرين ، الذين لا يعتنقون عقيدته ، ولا يتجمعون على آصرته .

لقد فرض الله الجهاد على المؤمنين ؛ لا ليكرهوا الناس على اعتناق الإسلام ؛ ولكن ليقموا فى الأرض نظامه الشامخ العادل القويم . على أن يختار الناس عقيدتهم التى يحبون ، فى ظل هذا النظام الذى يشمل المسلم وغير المسلم ، فى عدل تام .

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »
(البقرة : ٢٥٦)

واعتبر الأرض التى يسيطر عليها النظام الإسلامى وتحكمها الشريعة الإسلامية هى « دار الإسلام » سواء كان سكانها من معتنقى عقيدته كلهم أو كان بعضهم من معتنقى الديانات الأخرى .. واعتبر الأرض التى لا يسيطر عليها النظام الإسلامى ولا تحكمها الشريعة الإسلامية هى « دار الحرب » أيا كان سكانها !

لم يترك الأمر لشريعة الغاب والنايب فى العلاقات بين دار الحرب ودار الإسلام . بل نظم هذه العلاقات تنظيماً دقيقاً ، يحكمه الخلق والنظافة والاستقامة .

فدار الإسلام إما أن تكون على عهد وميثاق مع دار الحرب ، فهو العهد المرعى والميثاق المحفوظ ؛ لا غدر فيه ولا خيانة ؛ ولا مباغته ولا مفاجأة . إلا أن ينقضى الأجل ، أو ينقض العهد أهل دار الحرب .

وإما أن تكون هناك موادة - بلا معاهدة مؤقتة - فهي الموادة إلا أن ينبذ إلى أهل دار الحرب - عند خوف الخيانة - ويعلنوا بانقضاء فترة الموادة .

وإما أن تكون هي الحرب .. وللحرب قيود وضمانات . فإن جنحوا للسلم مؤثرين المعاهدة والجزية والرضى بالنظام الإسلامى ، مع حريتهم فى اختيار العقيدة ، . فلهم ذلك على المسلمين :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون : الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإذا تنقضهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم »

(الأنفال : ٥٥ - ٦١)

وأكد على الوفاء بالعهد ، مبطلا حجة «مصلحة الدولة» فإنها لا تجيز نقض العهود :

«وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة . إنما يلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » ...

(النحل : ٩١ - ٩٢)

فإذا كانت الحرب فهي الحرب التي لا تهتك فيها حرمة ، ولا يقتل فيها صبي ولا شيخ ولا امرأة ، ولا يحرق فيها زرع ، ولا يبتلف فيها ضرع ، ولا يمثل فيها بإنسان ، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين .. وهذه وصية أنى بكر لجيش أسامة وهو ذاهب لمقاتلة الروم :

«لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا . صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبجوا شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ... اندفعوا باسم الله » ...

ولست أنوى هنا إستقصاء قوانين المعاملات بين دار الإسلام ودار الحرب ، ولا بين المسلمين وسائر الأقوام . فهذا البحث المجمل ليس مكان هذا التفصيل .. إنما أريد أن أصل إلى الخط العريض الذى أقامه الإسلام فى الأرض ، للتعامل بين المعسكرات المختلفة ، حيث لم يكن لذلك الخط وجود . فإ كانت الأمم - يوم جاء - تتعامل إلا بقانون

السيف وحده ، أو قانون الغاب والناّب - فمن كان يملك القوة فكل شيء له حلال . والمغلوب لا حقوق له على الإطلاق !

هذا الخط الإسلامي العريض لم يذهب ولم يمح من واقع البشرية فقد بدأ العالم في القرن السابع عشر الميلادي (القرن الحادي عشر الهجري) في التعامل على أساس من القانون ! وأخذ يخطو خطوات متوالية في « القانون الدولى » وجعل يحاول إقامة هيئات دولية للتحكيم في القرن التاسع عشر ، وظلت هذه التشكيلات تتأرجح بين النجاح والفشل حتى اللحظة الحاضرة .. ووجدت بمحوت قوية وضخمة في القوانين الدولية .

ومن ثم لم تعد الأنظمة التي جاء بها الإسلام غريبة غريبها يوم جاء .
حقيقة أن البشرية لم ترتفع قط إلى المستوى الأخلاقى الذى بلغته الجماعة المسلمة في التعامل الواقعى .

وحقيقة أن نكسات قوية قد وقعت في هذا العصر حتى في القوانين الدولية النظرية التي وصل إليها الفقه القانونى في العالم الغربى . فأنفى شرط إعلان الحرب . ونقض المعاهدات ، وإنهاء الموادعات ! وأصبح الأمر غيلة أشد من حالة الوحوش في الغاب !

وحقيقة إن دوافع الحرب والسلم لم ترتفع قط عن المصالح والمغانم والأسلاب والأسواق ؛ ولم ترق قط إلى أفق الفكر والعقيدة والخير والعدل والصالح التي يستهدفها الجهاد في الإسلام .

كل هذا صحيح . ولكن خط التعامل الدولى على أساس من القانون

المعروف لجميع الأطراف .. قد وجد . أوجده الإسلام لأول مرة . وخطه في حياة البشرية ذلك المنهج الإلهي القويم الرفيع .

فإذا خوطبت البشرية مرة أخرى بهذا المنهج لم يكن هذا الخط غريبا عليها ولا مستكرا .. قد تظل أسسه الأخلاقية الرفيعة غريبة على البشرية الواغلة في مستنقع الجاهلية ، فترة من الزمان . ولكن أصل الخط وصورته لن تكون غريبة ولا مستكرة .

والإسلام الذى اعتمد أول مرة على رصيد الفطرة وحده في إقرار مبادئه ، ورسم خطوطه ، سيعتمد في الجولة القادمة على ذلك الرصيد . ويعتمد - إلى جانبه - على تلك التجارب الواقعة المعهودة . وسيكون - بإذن الله - أقدر على استئناف خطواته من جديد .. بهذا الرصيد .

* * *

وَبَعْد !

وبعد ، فإننا لا نملك في هذا البحث المجمل أن نغضى أكثر من هذا في الحديث عن الخطوط العريضة التي خطها الإسلام في حياة البشرية وتاريخها وواقعها ، والتي لم تكن معروفة من قبل ولا مألوفة ، والتي بقيت منها ملامح وآثار في حياة البشر ، مهما تكن باهتة . ومهما تكن منحرفة ، ومهما تكن هابطة عن القمة السامقة التي ارتفع إليها الناس في ظل المنهج الإلهي القويم ..

فهذه النماذج القليلة التي أشرنا إليها تصلح إشارة إلى عشرات الخطوط العريضة التي أقرها ذلك المنهج . بعد أن أنشأها إنشاء . ويمكن القياس عليها في شتى جوانب الحياة البشرية خلال أربعائة وألف عام .

» « «

ولكن الكلمة التي لا بد أن تقال في ختام هذا البحث المجمل ، كي لا يغتر الدعاة إلى الله ، وإلى منهج الله ، بهذه العوامل المساعدة ، وينسوا أخذ الأهبة كاملة لأشواك الطريق وعوائقه ..

هذه الكلمة ينبغي أن تكون عن الخطوط المضادة ، وعن عوائق الطريق الكأداء !

إن البشرية يحملتها اليوم .. أبعد من الله ..
 إن الركّام الذى يرين على الفطرة أثقل وأظلم . فالجاهليات القديمة
 كانت جاهليات جهل وسذاجة وفتوة . أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية
 علم ! وتعقيد ! واستهتار !

إن الفتنة بفتوحات العلم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
 الميلاديين كانت فتنة طاغية . والهروب من الكنيسة ومن إله الكنيسة الذى
 تصول باسمه وتجول ، وتحرق العلماء ، وتعذب المفكرين ، وتناهض
 النضضات .. كان هروبا مجنونا آبقا لا يلوى على شىء ؛ ولا يبقى على
 مقدس !

حقبة إن العلم ذاته منذ مطلع هذا القرن قد أخذ يقود كبار العلماء
 إلى الله من جديد . والفطرة التى أشقاها الضرب فى التيه قد بدأ يبدو
 عليها التعب والحنين إلى الله من جديد .. ولكن تلك الفتنة ما تزال فى
 عنفوانها . وقد يتقضى هذا القرن كله قبل أن تظهر البوادر الكاملة لعودة
 القطيع الشارد من التيه البعيد .

٩٧

والحياة الدنيا قد اتسعت رقعتها فى حس الناس وواقعهم ! اتسعت
 رقعتها بما استحدثته الحضارة من وسائل الحياة والمتاع والاستقرار فى
 الأرض ، وأحسن الناس بضمخامة هذه الحياة فى واقعهم وفى مشاعرهم
 سواء . وأضافت العلوم والثقافات والفنون والهوايات مساحات ضخمة
 إلى رقعة الحياة فى واقع الناس وفى مشاعرهم سواء ! .

ولو قام هذا كله على أساس من المعرفة بالله ، وبخصائص الألوهية وخصائص العبودية ، وعلى أساس من الحقيقة العميقة : حقيقة أن الله هو الذى استخلف الإنسان فى الأرض ، وسخر له ما فيها ، وزوده بالموهب والاستعدادات التى تعينه على الخلافة ، وتيسر له طيبات الحياة كلها .. وأنه مبتلى فى هذا كله ليحاسب فى الآخرة على ما قدم فى حياته الدنيا ..

لو قام هذا كله على هذا الأساس الصحيح ، لكانت هذه المساحات الجديدة التى أضافها العلم وأضافها الحضارة ، لرقعة الحياة فى واقع الناس ومشاعرهم .. مساحات تضاف إلى رقعة الإيمان ، وتزيد الناس قربا من الله ومنهج القويم الممثل فى الإسلام .

ولكن هذا كله إنما قام على أساس الهروب من الكنيسة الطاغية ومن إلهها الذى تستطيل به على الناس ! فكانت هذه الإضافة إلى رقعة الحياة مبعدة عن الله ، وعقبة فى الطريق إليه ، ينبغى أن يحسب حسابها للدعاة !

حقيقة أن البشرية قد شقيت وتعبت من حمل هذه الحضارة المادية ، والمضى فى متاعها المترف . وحقيقة أن الفساد والانحلال والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ العقلى والجنسى ، وآثار ذلك كله تنخر فى جسم هذه الحضارة ، وتشقى الأمم والأفراد ، وتفتح الأعين بعنف على الشر والفساد والدمار ..

ولكن البشرية ما تزال فى هياجها الحيوانى ، وفى خوارها الجنونى ، وفى نشوتها المعربرة .. وقد ينقضى هذا القرن كله قبل أن تتفتح العيون

فعلا وتصحو الأدمغة من هذا الحمار ، وتكف البشرية أو تفكر في أن
تكف عن هذا الدوار !

وكانت الجاهليات الأولى قريبة العهد بالبداءة ، فيها- فتوة البداءة
وجدها على كل حال .

كانت للناس تقاليد ، وكانت أخلاق الفتوة - في الغالب - تحكم
تصرفات الناس .

وعلى قدر ما كانت هذه الفتوة تجعل المعركة بين أصحاب الدعوة
وأصحاب الجاهلية قاسية وعنيفة ، فإنها كانت تجعلها مكشوفة وصرخة ..
كانت الفطرة قريبة .. تلي وتجيّب ، من قريب ، من وراء العناد
والكبرياء .. وكان هناك الجدل الصارم في الكفر أو الإيمان سواء ..

وهذا على كل ما يثيره من المتاعب ، خير من الميوعة والاستهتار
وعدم المبالاة !

والبشرية اليوم تعاني من التبع والاستهتار والاستخفاف بكل عقيدة
وكل رأى وكل مذهب . كما تعاني من نفاق القلب ، وكيد الضعف
وخبث الاحتيال !

وكلها عقبات في طريق الدعوة إلى الله ، ومعوقات عن الاستقامة
على منهج الله .

وغير هذا كثير من لونه ، ومن ألوان شتى ، ينبغى ألا نهون من شأنه ، كى لا يغتر الدعاة إلى الله بالعوامل المساعدة ، ثم لا يتزودوا كل الزاد ..

ولكن ما الزاد ؟

إنه زاد واحد .. راد التقوى .. إنه الشعور بالله على حقيقته .. إنه التعامل مباشرة مع الله .. والثقة المطلقة بوعده الجازم الحاسم : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (الروم : ٤٧)

والأمر كله هو أمر العصبة المؤمنة التى تضع يدها فى يد الله . ثم تمضى فى الطريق . وعدُّ الله لها هو واقعها الذى لا واقع غيره ، ومرضاة الله هى هدفها الأول وهدفها الأخير .

وهذه العصبة التى تجرى بها سنة الله فى تحقيق منهج الله ، وهى التى تنفض ركाम الجاهلية عن الفطرة ، وهى التى يتمثل فيها قدر الله فى أن تعلو كلمته فى الأرض ، ويتسلم منهجه الزمام :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن بمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . ولينحص الله الذين آمنوا ويحق الكافرين » (آل عمران : ١٣٧ - ١٤١)

وصدق الله العظيم .

يصدر عن دارالشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الأستاذ سيد قطب

- في ظلال القرآن
- دراسات إسلامية
- مشاهد القيامة في القرآن
- نحو مجتمع إسلامي
- التصوير الفني في القرآن
- في التاريخ فكرة ومنهاج
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- تفسير آيات الرأيا
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- تفسير سورة الشورى
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- كتب وشخصيات
- مهمة الشاعر في الحياة
- المستقبل لهذا الدين
- هذا الدين
- معركتنا مع اليهود
- السلام العالمي والإسلام
- معركة الإسلام والرأسمالية
- العدالة الاجتماعية في الإسلام
- معالم في الطريق

مكتبة الأستاذ محمد قطب

- الإنسان بين المادية والإسلام
- قبسات من الرسول
- منهج الفن الإسلامي
- شبهات حول الإسلام
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- بجاهلية القرن العشرين
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- دراسات قرآنية
- معركة التقاليد
- مفاهيم ينبغي أن تصحح
- في النفس والمجتمع
- مذاهب فكرية معاصرة
- التطور والثبات في حياة البشرية
- كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- دراسات في النفس الإنسانية
- تحت الطبع
- هل نحن مسلمون
- المستشرقون والإسلام

من كتب دار الشروق الإسلامية

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي	مصحف الشروق المفسر المبسر
الدكتور عبد العال سالم مكرم	مختصر تفسير الإمام الطبري
على مشارف القرن الخامس عشر الهجري	تحفة المصاحف وقمة التفاسير
الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير	في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء
الرسالة الخالدة	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الرحمن عزام	الإمام الأكبر محمود شلتوت
محمد رسولاً نبياً	الإسلام عقيدة وشريعة
الأستاذ عبد الرزاق نوفل	الإمام الأكبر محمود شلتوت
مسلمون بلا مشاكل	الفتاوى
الأستاذ عبد الرزاق نوفل	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام في مفترق الطرق	من توجيهات الإسلام
الدكتور أحمد عروة	الإمام الأكبر محمود شلتوت
العقوبة في الفقه الإسلامي	إلى القرآن الكريم
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي	الوصايا العشر
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الجرائم في الفقه الإسلامي	المسلم في عالم الاقتصاد
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ مالك بن بي
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي	أنبياء الله
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ أحمد بهجت
القصاص في الفقه الإسلامي	نبي الإنسانية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ أحمد حسين
الدية في الشريعة الإسلامية	ربانية لا رهبانية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	أبو الحسن علي الحسيني الندوي
الإسراء والمعراج	الححة في القراءات السبع
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي	ر. د. - يم الدكتور عبد العال سالم مكرم

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب

الإمام الغزالي

الأدب في الدين

الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان

الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسرائء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب

الدكتور عد الجليل شلي

تأريخ القرآن

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة

الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات

تأليف الدكتور علي عبد الله الدقاع

تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي

مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه

الإسلامي

الدكتورة سهر رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق

دكتور رؤوف شلي

القضاء والقدر

فصيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية

فصيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن

الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي

الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله

الأستاذ عد الكريم الخطيب

مسلمون وكلئ

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهاية

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون - أدب ودين

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى

الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والمنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم المطعني

رقم الايداع . ١٧٨٩ / ١٩٨٩
ترقيم الدولى . ١ - ٢٩٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروقة

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي